

تأليف

الإمام المجتهد شيخ الإسلام

الشريف محمد المنتصر بالله بن محمد الزمزمي الكتاني الحسني

1332 - 1419 هـ

إخراج واعتناء

حفيد المؤلف

الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني

الجزء الأول

أ - ذ



أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah.com baydoun@al-ilmiyah.com

Title : **Jurisprudence lexicon of Ibn Hazm**

Classification: Jurisprudence

Author : Al-Šarīf Muḥammad al-Muntaṣir al-kattānī

Editor : Al-Šarīf Muḥammad Ḥamzah al-Kattānī

Publisher : Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Pages : 864 (2 volumes)

Year : 2009

Printed in : Lebanon

Edition : 1st

الكتاب : **معجم فقه ابن حزم الظاهري**

التصنيف : فقه

المؤلف : الشريف محمد المنتصر بالله الكتّاني

المحقق : الشريف محمد حمزة الكتّاني

الناشر : دار الكتب العلميـــة ـ بيروت

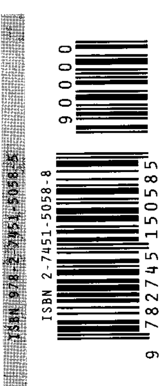
عدد الصفحات: 864 (جزءان)

سنة الطباعة : 2009

بلد الطباعة : لبنان

الطبعة : الأولى (لونان)

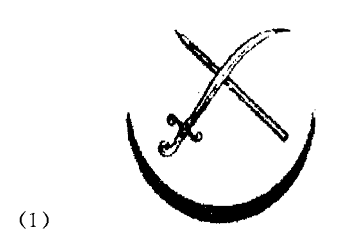




ISBN 978-2-7451-5058-5



وصلى الله وسلم على الرؤوف الرحيم وآله وصحبه


(1)

تقديم

بقلم حفيد المؤلف: الدكتور محمد حمزة بن علي الكتاني

أحمدك اللهم يا من أبرزتَ في الأمة المحمدية طولَ العصور مجددين ومصلحين، يرفعون لواء الدين، ويوصلون الشريعة غضة طرية غراء لسائر المَلَوَيْن، وأصلي وأسلم على روح العالم وسيد الثقلين، سيدنا ومولانا محمد نبي الرحمة، صاحب الحوض المورود، واللواء المعقود، والدين المحمود، إمام المرسلين، وعلى آله وأصحابه الغر المحجلين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد؛ فهذا كتاب فريد في بابه، مبدَع في أسلوبه، ألفه جدنا الإمام المجتهد، شيخ الإسلام؛ أبو علي محمد المنتصر بالله بن محمد الزمزمي الكتاني - رحمه الله تعالى - معنوناً إياه بـ: "معجم فقه ابن حزم الظاهري"، رام من خلاله جمع المسائل التي تحدث عنها

---

(1) هذا الشعار هو شعار المؤلف رحمه الله تعالى، والذي كان يمثل خلاصة أفكاره.

الإمام علي ابن حزم الظاهري الأندلسي، خاصة في كتابه "المحلى"، وتصنيفها وترتيبها على أسلوب توسع في عرضه في مقدمة الكتاب، ليسهل الرجوع إليها، والاستفادة منها، للباحث من جهة، ولواضع القوانين الإسلامية من جهة أخرى.

وهو ضمن مشروع كبير خصص له المؤلف - رحمه الله - قسما كبيرا من حياته، بل ربما حياته كلها، وهو: مشروع الدولة الإسلامية، فكتب عدة مؤلفات في هذا الميدان، ربما أوسعها: "معجم فقه السلف صحابة وعترة وتابعين"، و"الأموال في الإسلام"، و"نظام الدولة الإسلامية المسمى: فتية طارق والغافقي"، وغيرها، علاوة على جهوده الدعوية والإصلاحية في هذا المجال.

وقد كان المؤلف - رحمه الله تعالى - فقيها أثريا، داعية إلى الرجوع بالفقه الإسلامي إلى منابعه الأصلية، ليعود غضا طريا مرنا كما وُجد من أجله، قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف/ 157].

فالشريعة جاءت للحض على المعروف؛ من صالح الأعمال والعادات والأخلاق، وما إليها. والنهي عن المنكر، قولا وفعلا، وعادة، وعُلقة..

فأحلّت كل طيب من الأطعمة، والأشربة، والأعمال، وموارد الكسب، وما إلى ذلك مما يتعلق بحياة الناس.

وحرمت عكسه مما يؤدي بالضرر للمرء في نفسه ومحيطه.

ووضعت الإصر والأغلال، والتشددات والعقوبات التي شرعها الله تعالى على من قبلنا من الأمم عقوبة لهم لكثرة ظلمهم وطغيانهم. ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم كما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن ابن مسعود مرفوعا: "هلك المتنطعون"، قالها ثلاثا. وقال فيما رواه عنه النسائي وابن حبان والبيهقي في "الشعب" عن أبي هريرة مرفوعا: "إن هذا الدين يُسر، ولن يشادَّ هذا الدينَ أحدٌ إلا غلبَه، فسددوا، وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغُدوة والرَّواح وشيءٍ من الدُّلجة".

ولا شك أن مصادر التشريع موقوفةٌ على أمور أخرى زيادة على الكتاب والسنة، وإن كان مردها إليهما؛ كالإجماع، والقياس، والعرف، والاستحسان، وما إلى ذلك، مما يضِيق عند قوم ويتسع عند آخرين.

واللهُ تعالى سائلُنا عن الاقتداء بسلف الأمة، وأهل القرون الثلاثة الأولى المفَضَّلة في قول النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه الإمام مسلم عن عبد الله بن عمر قال: "سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الناس خير؟ قال: قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم".

ونظرا لأن الاجتهاد في تلك القرون كان أقرب لمنابعه الأصلية؛ كان من الطبيعي الرجوع إلى فهم أولئك الأئمة، وإلى فهم تلامذتهم ومن نحا نحوهم ممن جاء بعدهم، غير منتقصين من الثروة الفقهية التي جاءت بعدهم إلى عصورنا هاته، وهي ثروة هائلة لا مثيل لها، ولكن تجديدا للفقه، وإحياء لمدارس قد انقرضت أو كادت تنقرض.

ومن أهم تلك المدارس: المدرسة الظاهرية، التي تزعمها في المشرق الإمام أبو سليمان داود بن علي بن خلف الأصبهاني البغدادي الظاهري (ت270)، وبالمغرب الإمام أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد ابن حزم اللبْلي القرطبي الأندلسي، الفارسي الأصل (ت456)، ولعل أهم ما وصلنا من كتب الظاهرية التي دونت مذهبهم، ونصرت آراءهم: كتاب "المحلى بالآثار"، لابن حزم، والذي يعد - وهو مختصر "الإيصال" له، المفقود جله - موسوعة فقهية ضخمة، قل أن أُلف على منوالها، بحثا في الدلائل من الكتاب والسنة، وأقوال سلف الأمة وأئمتها المجتهدين، والمناظرة على ذلك، قال فيها الإمام الحافظ المجتهد أبو الإسعاد عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني: "من لم ير "المحلى" في الفقه؛ لم ير شيئا، ولا يتصور جرأة هذا الرجل وإقدامه، وشجاعة قلبه وقلمه، ومبلغ علمه!"[1].

وقد كتب الله للمدرسة الظاهرية أن تنتشر في الأندلس والمغرب دهرا، حتى قامت الدولة الموحدية في القرن السادس والسابع على دعوتها، وترجم العلامة البحاثة أبو المزايا محمد إبراهيم بن أحمد الكتاني في كتابه "طبقات المجتهدين وأعداء التقليد

---

(1) "إفادة النبيه إلى من ادعى الاجتهاد أو ادعي فيه". للحافظ عبد الحي الكتاني. مخطوط، بين أيدينا طرف منه.

في الإسلام" من أعلامها في العصر الموحدي لنحو من ثلاثة وعشرين مجتهدا.

غير أنها ما فتئت أن خمدت جذوتها، فلم نكد نسمع إلا بعلَم يظهر من وقت لآخر، كأبي عبد الله محمد الأندلسي وِجَاراً المراكشي داراً، في القرن العاشر، الذي قال فيه ابن عسكر في "دوحة الناشر" (ترجمة رقم: 106): "وكان كثير الوقوع في الأئمة، فنحا منحى ابن حزم الظاهري، وشاع ذاك عن أصحابه، فأفتى فقهاءُ مراكش بتضليله، وأَنْهَوْا ذلك إلى السلطان، فأمر بسجنه وبقي فيه مدة ثم فُرج عنه. وتَلَقَّبتْ شيعتُه بالمحمدية، ويُسَمُّون مَن خالفهم بالمالكية نسبة إلى الإمام مالك، ثم آل الأمر إلى أن قتله العامة وصلبوه".

ولم يمنع ذلك من استمرار الظاهرية في المغرب، أو من تأثر بهم، أو على الأقل دعاة الاجتهاد أو من ادعوه جيلا بعد جيل.

ففي القرن الحادي عشر: كان أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الفاسي الفهري، وابن أخيه أبو حامد محمد العربي بن يوسف الفاسي الفهري، وأبو علي الحسن بن مسعود اليوسي.

وفي الثاني عشر: أبو عبد الله محمد المسناوي الدلائي، وأبو عبد الله محمد بن المبارك اللمطي، وأبو العلاء إدريس العراقي الحسيني.

وفي الثالث عشر: أبو حفص عمر بن عبد الله بن عمر الفاسي الفهري، وحمدون بن عبد الرحمن ابن الحاج السلمي المرداسي، ومحمد بن عمرو الزروالي، والطيب بن عبد المجيد ابن كيران.

أما في القرن الرابع عشر الهجري؛ فقد اعتنى الناس بالاجتهاد وعلومه، وعرف جمع من العلماء بادعائه والاشتغال به، وهو قرن اتسعت فيه دعوى الاجتهاد، حتى ادعاه من هو أقل من أن يستفتى في العلم. وممن انتحل الاجتهاد وانتسب إليه أو نُسب إليه من الأئمة: أبو المكارم عبد الكبير بن محمد الكتاني، وأبو عبد الله محمد بن جعفر الكتاني، وأبو الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني، وابناه: أبو الفضل محمد المهدي الكتاني وأبو الهدى محمد الباقر الكتاني، وأبو الجمال محمد الطاهر بن الحسن الكتاني، وأبو الإسعاد عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، وأبو هريرة عبد الرحمن بن محمد الباقر الكتاني، ومحمد مصطفى ماء العينين الشنقيطي، وابنه محمد

الحسن - المسمى: حَسَنًا - الشنقيطي، وأبو عبد الله محمد بن الصديق الغماري، وأبناؤه: أبو العباس أحمد الغماري، وعبد الله الغماري، وعبد العزيز الغماري.

ولكن ممن نسب للمذهب الظاهري، أو كان له اعتناء به أو نصرة: أبو سالم عبد الله بن إدريس السنوسي، ومحمد بن عبد السلام السائح، ومحمد إبراهيم بن أحمد الكتاني - وهو إمام الدراسات الظاهرية في وقته - ومحمد الناصر لدين الله بن محمد الزمزمي الكتاني، وعبد الحي بن محمد بن الصديق الغماري، ومحمد الزمزمي بن محمد بن الصديق الغماري، ومحمد بن عبد الرحمن النتيفي. ولا شك أن رأسهم وأعلاهم كعبا في هذا الباب هو مؤلف هذا الكتاب: الإمام محمد المنتصر بالله الكتاني، رحمه الله تعالى.

والظاهرية دعوا للعمل بظاهر الكتاب والسنة، وضيقوا في الإجماع، حتى قيل بأن أصح الإجماعات: إجماع ابن حزم، وضيقوا في القياس، حتى كادوا ينكرونه. وما اقتصر ذلك على الفقه وما إليه، بل انعكس على الحديث وعلومه، فتوسعوا في التضعيف، وضيقوا في التسهيل، حتى كان مولانا الإمام الجد الشيخ محمد المنتصر بالله الكتاني - رحمه الله تعالى - يقول لنا: "ابن حزم كما كان ظاهريا في الفقه؛ كان ظاهريا في الحديث أيضا"، بمعنى أنه: يُعتمد في التصحيح، ولا يعتمد في التضعيف.

والظاهرية ممثلين في إمامهم ابن حزم؛ كما كانت لهم مناظرات مع من خالفهم من أرباب المذاهب الأربعة، كانت لهم مناظرات مع أرباب الأديان الأخرى، والفِرَق الأخرى، من معتزلة وخارجة ورافضة من أهل الإسلام، ونصارى ويهود بشتى طوائفهم من أصحاب الملل الأخرى، ولا شك أن كتاب "الفِصَل في الملل والنحل" يُعد مرجعا مهما في دراسة علم الأديان المقارن، ومن أصح الكتب التي عرضت أقوال أرباب الملل من مصادرها الأصلية.

ولذلك، وعلى الرغم من قول الشيخ أبي العباس أحمد زَرُّوق فيما نُسب إليه: بأن ابن حزم علمُه أكبر من عقله، وأنه لا يُحتج به في الخلاف، فإنه ما من شك أن المدرسة الظاهرية، وشيخها - عمليا - ابن حزم الأندلسي، تعد مدرسة متكاملة العناصر، لها في البحث العلمي في نطاق التشريع الإسلامي وعلم الأديان المقارن، بصمتها المهمة، فقد أتت بالجديد، وحلت إشكالات، وتعتبر مصدرا أساسيا من مصادر

الفقه الإسلامي خاصة، والعلوم الإنسانية بعامة.

من هنا اعتنى الإمام محمد المنتصر بالله الكتاني بكتب هذه المدرسة، والبحث فيها، لما ذكرناه آنفا، ولاهتمامه - رحمه الله - بتراث الأندلسيين عامة، وعمله على نشر حضارة الأندلس وعلومها، وتراجم أعلامها، بل والدعوة إلى الله تعالى في بلاد الأندلس، حتى سمت بلدية قسطلة من مقاطعة قادس جنوب غرب الأندلس - إسبانيا - الشارع الرئيس بها: "شارع منتصر الكتاني"، "اعترافا للحب والمساعدة التي أظهرها الأستاذ الكتاني للأندلس"[1].

وألخص قيمة عمل المؤلف - رحمه الله - وخطته من محاضرة له في الموضوع بعنوان: "موسوعات الفقه الإسلامي، أو: معاجم القوانين الفقهية"، ألقاها برابطة العالم الإسلامي، ونشرت في حينها، وأعدنا نشرها في مقدمة موسوعته: "معجم فقه السلف: عترة وصحابة وتابعين" الواقع في تسعة أجزاء[2]، قال رحمه الله تعالى:

"تقنين الفقه بجميع مذاهبه منذ عصر الصحابة إلى عصر تجميد الاجتهاد، أي: القرون الخمسة الأولى، قرون الخير والنور وإمامة العلوم وسيادة المسلمين للعالم، تقنين الفقه صناعة عربية إسلامية عنَّا أخذها الأجانب وكان الأندلسيون هم رواد المسلمين والعالم فيها".

"فأبو محمد ابن حزم الأندلسي إمام فقه الحديث، وقد عاش ما بين عام (384) وعام (456) هو الرائد الأول لتقنين الفقه، فقد وضع كتابا يعتبر أول موسوعة فقهية جامعة، وأول معجم شامل لجميع مذاهب الفقه وهو: كتاب "الإيصال الجامع لجمل شرائع الإسلام، في الواجب والحلال والحرام، وسائر الأحكام، على ما أوجبه القرآن والسنة والإجماع". قال عنه مؤلفه ابن حزم في المحلى: "قد جمعنا فيه كل ما روي من نصوص القرآن والسنة والإجماع، منذ أربعمائة عام ونيف

(1) كما في رسالة بعثتها بلدية قسطلة للشيخ رحمه الله. (" انبعاث الإسلام في الأندلس" ص 377، تأليف: الدكتور علي بن المنتصر الكتاني. دار الكتب العلمية).

(2) طبع هذا الكتاب طبعته الأولى بجامعة أم القرى بمكة المكرمة عام 1986/1406، وهو الآن تحت الطباعة، بتصحيح وتمحيص، مع مقدمة واسعة أضفناها، ببعض دور النشر.

وأربعين عاما من شرق الأرض إلى غربها".

"وقال عنه تلميذه الحافظ الحميدي في "جذوة المقتبس": "أورد فيه أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين في مسائل الفقه، والحجة لكل طائفة وعليها، والأحاديث الواردة في ذلك من الصحيح والسقيم بالأسانيد، وبيان ذلك كله، وتحقيق القول فيه. ويعتبر هذا الكتاب ضائعا بين ما ضاع من كنوز وتراث الفردوس المفقود: الأندلس".

"ولكن إذا ضاع "الإيصال" فقد بقيت لنا صورة مصغرة عنه وهو مختصره لابن حزم المؤلف نفسه وأعني به: كتابه "المحلى" وقد طبع ثلاث مرات".

"فالمحلى مختصر "الإيصال" في أحد عشر مجلدا، مات ابن حزم وهو يؤلفه، وقد وصل فيه إلى ثنايا المجلد العاشر، فأتمه ولده الشهيد الفضل أبو رافع، أمير ولاية مالقة الأندلسية، أتم العاشر، وكتب المجلد الحادي عشر، والأخير منه اختصره من الأصل الجامع كتاب أبيه "الإيصال". وبمعرفتنا للمحلى عرفنا "الإيصال".

"والرائد الثاني لتقنين الفقه: الشهيد أبو القاسم ابن جزي الأندلسي الإمام المالكي، وقد عاش بين عام (693) وعام (741)، فقد وضع كتابا - طبع أكثر من مرة - في فقه أئمة المذاهب الأربعة: أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، وسماه: "القوانين الفقهية".

"والعودة إلى تقنين الفقه مسألة مسألة كما دُوّن في العصر الخامس، ومادة مادة كما دُوِّن في القرن الثامن، هي عودة ضرورية ملحة، توجبها العقيدة والتزام الثبات عليها، ويوجبها العلم والتزام الدعوة إليه".

"توجبها العقيدة والتزام الثبات عليها: نحن اليوم نعيش في غزو فكري، الغزاة فيه وحوش ضارية، هم أشد ضراوة من الغزاة العسكريين، فهؤلاء استهدفوا الأرض قرونا، أو قرنا وبعض قرن، وفي النهاية طُردوا منها أذلاء صاغرين، وقامت على تلك الأرض دول إسلامية تشهد بشهادة التوحيد، وتستقبل كعبة المسلمين، أما غزاة الفكر فقد استهدفوا المسلم نفسه لا أرضه فقط، فغزوا مخه وقلبه، وعشعشوا فيهما وعنكبوا، باض فيهما وفرخ سرطان تمكن من عقيدة الإسلام وفقه المسلمين،

فحوَّلهما إلى عقيدة الكفر وفقه الشياطين".

"أما العالم الإسلامي - في أكثره - فقانون نابليون بكفره وظلمه وكثرة فسوقه قد غزاه وحكمه حكومات وشعوبا، ولا يزال يغزوهم، فلا تزال كليات الحقوق في جامعاتهم تجمع لإبليس طلابا وتخرِّج له أساتذة ودكاترة، يحلُّون قوانينه محلَّ فقه الإسلام، ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾".

"وكثير من هؤلاء لو يقرّب لهم الفقه بما اعتادوه من تقنين ووسائل لعادوا إليه عودَ الغريب لأهله، والشارد إلى قومه!".

"والطريق لهذا التقريب هو: تدوين موسوعة للفقه جامعة لكل قضاياه، شاملة لكل مذاهبه، وتكون هذه الموسوعة معجمًا، بمعنى أنها تدوِّن مواد ومسائل مرتبة على حروف المعجم: أ ب ت، ففقهنا المدون أبوابا وفصولا مع كثرة الاستطراد فيه وذكر الكثير من القضايا في غير مظانِّها، حين يُعاد تصنيفه على حروف المعجم: أ ب ت، وتستقصَى في هذا المعجم جميعُ المذاهب في العصور الفاضلة، نكون قد يسرنا الفقه على المختص، وقربناه لغير المختص، وأبرزنا كنوزه ومعادنه الثمينة لجميع الناس في العالم، مسلمين وغير مسلمين، ونكون بذلك دعاةً إلى الإسلام الدين الحق، ومعلمين للعلماء حقائق الحلال والحرام، وقضاة عادلين محاربين للظلم والظلمة، وناشرين للحق والعدالة بين البشر في جميع ما شجر بينهم".

"وبظهور معاجم الفقه الإسلامي، ندفع عنه ما قذفه به كفرة المستشرقين وجهلة المسلمين من أنه فقه بدائي وإنما انتشر واتسع في بغداد بقانون حمورابي والفرس والرومان باسم القياس"...

"وبظهور معاجم الفقه الإسلامي وما اشتملت عليه من مجلدات في فقه الصحابة والتابعين، قبل أن تكون بغداد، وقبل أن يولد أئمتها؛ نثبت للناس أن فقه الإسلام هو فقه الإسلام، وكفى بهذا الوصف كشفا وسمة، فهو مستنبَط من القرآن والسنة وإجماع الصحابة والتابعين، وما زاد عليها فهو فروع عنها، ومستخرَج منها خروج الجنين من بطن أمه".

"وأول من فكَّر في إخراج معجم موسوعة للفقه: كلية الشريعة بجامعة دمشق منذ

ستة عشر عاما، أُسست لذلك لجنة بمرسوم جمهوري، وبعد قيامها بسنتين؛ حَضَرتُ من المغرب، وضُمِمْت لها بمرسوم، فكان التخطيط لتدوين الموسوعة: أن يُسْتَكْتَبَ لها فقهاء من مختلف أقطار العالم الإسلامي، فعارضتُ هذه الخطة لثلاث علل:

"العلة الأولى: أن ما سيكتب - لو كتب - سيكون غير متناسق ولا منسجم، وسيكون ابنَ جماعة هجينا".

"العلة الثانية: من كيان الموسوعة الأساسي أن لا يكون للفقيه الكاتب فيما يكتبه رأي خاص، لا بتقديم ولا بترجيح، لا برفض ولا بقبول، وإنما هو مصوِّر للفقه كما هو عند أئمته دون تدخل بينهم، وإلا؛ كان من يفعل ذلك مدوِّنا فقهاً لنفسه ومذهباً له، والموسوعة لم تُجعل لفقه نفسه ولا لمذهبه".

"العلة الثالثة: فقهاء الموسوعة وكتابها - لبعدهم عن بعض وعدم اجتماعهم - سيبقى فهم تدوينها وتحريرها بينهم ضائعا، مما سيكون سببا لعدم استجابتهم للكتابة. وهذا الذي حدث!".

"قال لي زملاؤنا من أعضاء اللّجنة: وما الخطة التي تراها أنت؟ قلت: توضع لكل قضية عامة من قضايا الفقه كلمة أصلية تشمل كلمات فرعية، ويحرص على أن ينتقى لذلك كلمات ذات دلالة ماسة بالقضية ودالة عليها بالتحديد، مع المحافظة على النص الفقهي ما أمكن، إلا إن كان النص غامضا فيوضَّح، أو متشعبا فيلخّص، ولا تُترك مفردة فقهية يكون لها معنى خاص ومصطلح عليه إلا وتفرد بكلمة أصلية أو فرعية".

"وكمثال لذلك: أتيتهم بأوراق رسمتُ فيها هذه الخطة، فوافقوا عليها مجمعين بكتابة قرار لا أزال أحتفظ به، فاخترتُ كتاب "المحلى" لابن حزم لعدة أسباب؛ منها: أن فقهه فقه لجميع المذاهب، فهو سيكون من أجل ذلك صورة مصغرة عن الموسوعة المكبرة، وسميته: "معجم فقه ابن حزم الظاهري".

"وهكذا بعد ستة أشهر أتممتُه في مجلدين ضخمين، وطبع بعد ذلك بسنوات بمطبعة جامعة دمشق عام 1385 هـ باسم "لجنة موسوعة الفقه الإسلامي"!.

"وبعد وحدة دمشق والقاهرة انضم إلى لجنة دمشق أعضاء مصريون بانتقائنا، هم من كبار علماء مصر، وضعنا جزءا نموذجيا طلب إلينا إنجازه بإلحاح ليظهر في مناسبة

خطابية رسمية دورية، فكتبناه على الخطة الأولى التي لم أؤمن بها؛ وهي: الاستكتاب، فكان جزءا نموذجيا حقا في العلل الثلاث التي ذكرتها عن الخطة الاستكتابية: الهجنة في عدم انسجام مواده، والتفاوت بين الفقهاء الكتاب في كل ما كتبوه، وقلة من شارك فيه. وكلهم من اللجنة الجديدة السورية والمصرية، وليس من غيرهم سوى الفقير المحاضر، فقد شارك بكتابة مادة: المعادن. وقد طبع هذا الجزء في القاهرة سنة 1381 هـ باسم: "موسوعة جمال عبد الناصر في الفقه الإسلامي". وخلال هذه السنوات تابعتْ موسوعة مصر الرسمية عملها، فأصدرت ستة أجزاء أخرى بنفس العنوان، ولكن زادت علة رابعة في فساد تلك الخطة: صدرت هذه الأجزاء الستة ولم يذكر فيها اسم لأحد من كتابها الفقهاء!" .

"وعلى خطة الموسوعة المصرية الرسمية الفقهية صدرت موسوعة شعبية مصرية أيضا، بإشراف صديقنا عالم مصر: الشيخ محمد أبو زهرة، رأيت منها مجلدا".

"وعلى خطة الموسوعتين المصريتين صدرتْ نشرتان في الأشربة والأطعمة لموسوعة فقهية في الكويت تحت إشراف صديقنا المحترم الشيخ مصطفى الزرقاء".

"وطريقنا نحن في تدوين الموسوعية الفقهية قد أصبحت واضحة مجسمة بصدور معجم فقه ابن حزم والنسج على منواله في إخراجها".

"وهذه المعاجم تفيد بمفردها في المناطق التي تتمذهب بفقه أحد أئمتها الأربعة، يعني: زيد بن علي وجعفر الصادق، تفيدهم للعلم والدراسة، وتفيدهم لاختيار الدساتير الإسلامية منها، والقوانين الموحدة الملزمة حكما وقضاء وفتوى".

"وبعد الانتهاء من تدوين جميع هذه المعاجم لفقه الصحابة والتابعين، والأئمة الذين لم يدوَّن فقههم والأئمة الذين دوِّن فقههم، وفقه آل البيت، وفقه أئمة النساء؛ تأتي المرحلة الثانية؛ وهي:

دمج جميع هذه المذاهب في كتاب واحد على نفس الطريقة المعجمية: أ ب ت باسم "معاجم الفقه الإسلامي".

"والمرحلة الثالثة: هي جمع جميع أحاديث الأحكام مرتبة على حروف المعجم

كذلك، وتكون هذه الأحاديث ذات عناوين مفردة، لكل حديث كلمة أصلية، تحتها كلمات فرعية ذات دلالة فقهية خاصة، ولتكون هذه الأحاديث مع آيات الأحكام الدليل المرجوع إليه عند تضارب المذاهب وتغاير الأحكام في القضية الواحدة لاختيار حكم واحد من بينها، يسنده الدليل ويعززه، على أن يُخرج كل حديث منها ويذكر بجانبه من صحَّحه أو ضعَّفه، أو من زكَّى جميع رجاله أو جرَّح أحدهم".

"وكنت أشرفتُ في "لجنة موسوعة الفقه" الدمشقية على جمع جميع أحاديث البيوع، فخرجتْ في ثلاثة أجزاء، وأعجلتنا الفتن العقائدية عن مراجعتها وإعطاء عناوين أصلية لوحداتها وفرعية لكل حديث منها، فأخرجتنا عن الشام حيث نقيم بين المملكة العربية السعودية وبين الكويت، بعد أن مات ثلاثة من خيرة زملائنا في اللجنة؛ وهم: الدكاترة مصطفى السباعي، ويوسف العشي، وأحمد السمان رحمهم الله وغفر لهم".

"وقد وضعنا في "المعجم الظاهري" كلمات ليس لها في كتب الفقه أبواب أو فصول مستقلة، وإن يكن لها أحكام مبعثرة في ثناياها ومستطردة، ومنها كمثال: إجهاض وتشريح وفضول المال".

"وطريقتنا هذه في المعاجم الموسوعية أثنى عليها بكتاب مستقل ودعا لها ونوَّه بها فيه وأسماه: "تراث الفقه الإسلامي ومنهج الاستفادة منه على الصعيدين الإسلامي والعالمي"، دعا لها وساندها مؤلف هذا الكتاب: الدكتور جمال الدين عطية، فقال بعد أن تحدث عنها في أوراق منه وفي عدة صفحات خص بها الحديث عن معجم فقه ابن حزم:

"ونرى أن يكون منهج العمل في معاجم أمهات الفقه على مثال ما تم بالنسبة لمعجم فقه ابن حزم الذي يتميز في رأينا بميزتين أساسيتين:

1- أنه أورد خلاصة وافية لرأي ابن حزم في كل مسألة.

2- أنه أرجع مباحث كل كلمة إلى رقم المسألة من كتاب "المحلى".

"وسيكون "معاجم الفقه الإسلامي" هذا بعد قيامه كتاب دراسة في جميع مراحل

التعليم الثانوي والجامعي والعالي، ومنه يأخذ كلٌّ ما يحتاجه وما يتفق ومناهجه وبرامجه".

"ومنه ستختار الحكومات الإسلامية - بواسطة علمائها وقضاتها ورجال الحكم فيها - دساتيرها وقوانينها العامة والخاصة، الداخلية والخارجية إن شاء الله".

"وقد استبعد بعض زملائنا وأصدقائنا من أساتذة الجامعات والعلماء إمكان تنفيذ هذه الطريقة وتحقيقها في الماضي، ولكن حين رأوها متمثلة في معجم فقه ابن حزم؛ تلاشى استبعادهم، وآمنوا بتحقيق تنفيذها. وإذا أعان الله؛ فسنعيده، وسيكون بعد تجديده ثلاثة مجلدات بدل مجلدين، إذ لا تزال فيه نواقص ككل عمل في البداية حين يُبتكر".

"وبعد؛ فإن قيام هذه "المعاجم" لموسوعة الفقه الإسلامي، سيبقى دينا في ذمة الدول الإسلامية ملوكا ورؤساء وحكومات، ودينا في ذمة الجامعات الإسلامية إدارة وأساتذة وموجهين، ودينا في ذمة القضاء محاكم وحكاما وقضاة".

"والذي سيسعده الحظ المقدور من الملوك والرؤساء المسلمين؛ سيكون نابليون المسلم الذي سيقول بملء فيه: ستنتهي فتوحاتي حيث يصل قانوني". انتهى ملخصا.

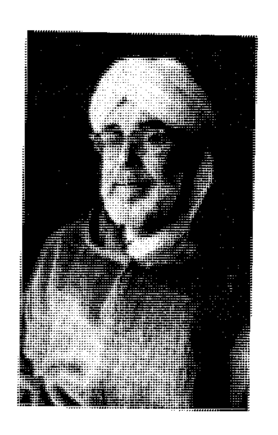
وبعد؛ فإن عمل المؤلف - رحمه الله تعالى - لم ينقطع، فقد استأنفه تلميذه ووارث سره فيه العلامة الدكتور محمد رواس قلعجي، الذي يعتبر الآن في عصرنا إمام هذه المدرسة، والذي أنتج هو وتلامذته عشرات الأبحاث في هذا المجال، وإن كنا نود أن يبقى هذا العمل في إطاره التقنيني التشريعي، في إطار تكوين القانون الإسلامي، وهذا العمل لن يكون موفقا إلا بتبني الدول الإسلامية له، وإلا؛ لن يعدو أن يكون بحثا علميا بحتا، غير موجه ولا مؤطر.

وقد ذكر المؤلف - رحمه الله - بأنه أصلح "معجم فقه ابن حزم الظاهري" بما يصيّره في ثلاثة مجلدات، غير أننا لم نقف بعد على تلك النسخة، ونعد بإعادة نشر الكتاب عند وقوفنا عليها إن شاء الله تعالى.

وأخيرا؛ فها هو القارىء يجد بين يديه هذا الكتاب - الموسوعة، أسأل الله تعالى أن ينفع بها، وأن تكون لبنة أساسية إلى ما كتبت بشأنه، وليس ذلك على الله بعزيز، ورحم الله تعالى مؤلفها الإمام شيخ الإسلام محمد المنتصر بالله الكتاني، وجعله في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ولا قطع البركة والعلم والدعوة إلى الله تعالى من نسله وولده وتلاميذه. والحمد لله رب العالمين.

وكتبه حفيد المؤلف
الدكتور الشريف محمد حمزة بن محمد علي
ابن محمد المنتصر بالله الكتاني
الرباط: ٢٦ محرم الحرام عام
الموافق: ٢٤ يناير عام ٢٠٠٩.

التعريف بمؤلف الكتاب
شيخ الإسلام محمد المنتصر بالله
الكتاني الحسني (1)



هو محدث الحرمين الشريفين، الداعية الإسلامي الكبير، ورائد الحركة الإسلامية المعاصرة الأول بالمغرب؛ الشيخ الإمام العلامة المفسر المحدث الحافظ الفقيه المؤرخ الأديب شيخ الإسلام أبو الفضل وأبو علي محمد المنتصر بالله ابن الإمام المشارك المصلح الداعية الرحلة محمد الزمزمي المتوفى عام 1371 ابن الإمام الحافظ شيخ الإسلام محمد المتوفى عام 1345 ابن شيخ الإسلام وأمير الإفتاء بالمغرب جعفر المتوفى عام 1323 ابن العلامة المجاهد في سبيل الله الشهيد إدريس المتوفى عام

(1) مصادر الترجمة: معجم فقه السلف: نهاية الجزء الأخير. عقد الزمرد والزبرجد للإمام محمد الزمزمي الكتاني ج3 مخطوط. والذيل على الأعلام للزركلي تأليف منير أباظة ومطبع الحافظ. وفتح السد عن بعض أسانيد الإمام الجدّ تأليف الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني. تحقيق النبذة اليسيرة النافعة التي هي لأستار بعض مزايا الشعبة الكتانية رافعة للإمام محمد بن جعفر الكتاني تحقيق الأستاذ عصام عرار الشريف الحسني ص 451. ومجموع الرسائل المتبادلة بين الشيخ المنتصر الكتاني ووالده، ومجموعة الرسائل المرسلة من الشيخ المنتصر الكتاني للشيخ =

1281 ابن العارف المعمر الطايع المُسَلْطَن، المتوفى بفاس سنة 1264هـ، ابن الفقيه إدريس، المتوفى بفاس سنة 1194هـ، ابن الفقيه المعمر محمد الزمزمي الحلبي، المتوفى بفاس سنة 1176هـ، ابن العارف المعمر محمد الفضيل، المتوفى بفاس سنة 1160هـ، ابن الوجيه العربي، المتوفى بفاس سنة 1122هـ، ابن الزاهد محمد، المتوفى بفاس سنة 1083هـ، ابن الصالح علي، المتوفى بفاس حوالي سنة 1054هـ ابن العارف قاسم، المتوفى بفاس حوالي سنة 1030هـ، ابن العارف الكبير المعمر عبد العزيز، المتوفى بفاس حوالي سنة 997 هـ، ابن العارف المعمر محمد (فتحا)، المتوفى بفاس أوائل القرن العاشر، ابن العارف المعمر قاسم، المتوفى أواخر القرن التاسع، ابن العارف المعمر عبد الواحد، المتوفى بمكناس في العشرة الخامسة من القرن التاسع، ابن الزاهد علي، المتوفى أواخر القرن الثامن، ابن العلامة المعمر محمد المتوفى بمكناس أواسط القرن الثامن، ابن العلامة المعمر علي، المتوفى بمكناس أواخر القرن السابع، ابن الصالح المُعَمَّر موسى، المتوفى بمكناس أواسط القرن السابع، ابن الصالح الزاهد المعمر أبي بكر، المتوفى بشَالَّة أواخر القرن السادس، ابن الصالح المعمر محمد، المتوفى أواسط القرن السادس، ابن الإمام القطب المعمر عبد الله، المتوفى بقسنطينة أواخر القرن الخامس، ابن العارف المعمر هادي المتوفى أواسط القرن الخامس، ابن أمير المؤمنين يحيى الثالث الكتاني، المتوفى بزواوة أواخر القرن الرابع، ابن العارف الكبير عمران، المتوفى بتلمسان أوائل القرن الرابع، ابن العارف المعمر عبد الجليل، المتوفى بالبُلَيدة أواخر القرن الثالث، ابن أمير المؤمنين يحيى الثاني، المتوفى بفاس سنة 252هـ، ابن أمير المؤمنين الفاتح يحيى الأول، المتوفى بفاس سنة 249هـ، ابن أمير المؤمنين محيي السنة محمد المتوفى بفاس سنة221هـ ابن أمير المؤمنين الفاتح الشهيد إدريس الثاني المتوفى بفاس سنة213هـ، ابن أمير المؤمنين، وناقل الخلافة الإسلامية من المشرق إلى المغرب، الفاتح الشهيد؛ إدريس الأول، المتوفى بزَرْهُون سنة 177هـ، ابن الإمام المحدث الشهيد؛ عبد الله الكامل، المتوفى بالكوفة سنة143هـ، ابن الإمام

= عبد الرحمن الكتاني. وقد كتبت نصف هذه الترجمة قبيل وفاة المترجم له، والنصف الآخر بعدها بأيام، ثم أضفت إضافات بتاريخ 10-6-1423، ثم زدت عليها زيادات متتالية اقتضاها الحال.

المحدث المعمر؛ الحسن المثنى، المتوفى بالمدينة سنة 97هـ، ابن أمير المؤمنين، وخامس الخلفاء الراشدين الشهيد؛ الحسن الأول، المتوفى بالمدينة سنة 50هـ، ابن أمير المؤمنين، ورابع الخلفاء الراشدين، الشهيد العظيم؛ سيدنا علي، المتوفى بالكوفة سنة 40هـ، وابن سيدة المسلمين؛ مولاتنا فاطمة الزهراء، المتوفاة بالمدينة سنة 11هـ، بنت أفضل الخلق وسيد الرسل؛ أبي القاسم وأبي الطاهر، سيدنا ومولانا محمد بن عبد الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى آله.

ولادته ونشأته وبيئته

ولد - رحمه الله تعالى - في الثاني عشر من ربيع الأول عام اثنين وثلاثين وثلاثمائة وألف (1332 - 1914) بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وأول ما ولد أدخل الحجرة النبوية على عادة أهل المدينة المنورة حينذاك مع أبناء العلماء.

ووالده هو: الشيخ الإمام العلامة المؤرخ المصلح محمد الزمزمي - صاحب "عقد الزمرد والزبرجد في سيرة الابن والوالد والجد"، في تاريخ القرن المنصرم؛ كان من أئمة العلم المصلحين، والدعاة المهتدين، والمحدثين المسندين، سافر في البلاد من المغرب للهند واجتمع بكبار العلماء الأعلام، وأصلح بين عدة من طوائف المسلمين، وألف كتابه الواسع في ترجمة نفسه ووالده وجده، ونجله الشيخ المنتصر، وذكر أهم أخبار العالم الإسلامي؛ بالأخص في الحجاز والمغرب والشام أواسط القرن المنصرم، كتابة شاهد عيان، وكان ورعا عابدا عارفا بالله تعالى، صاحب أذكار ونصرة للمجاهدين. توفي - رحمه الله تعالى - عام 1371 بدمشق الشام.

وجده هو: شيخ الإسلام الإمام أبو عبد الله محمد بن جعفر الكتاني - صاحب "الرسالة المستطرفة" في مشهور كتب السنة، و"سلوة الأنفاس" في أعلام فاس..وغيرهما، الذي أذعن له علماء زمانه مشرقا ومغربا لعلمه وعمله، والمتوفى بفاس بالمغرب عام 1345.

ووالدته هي: السيدة الفاضلة الصابرة، المحتسبة المربية؛ فضيلة بنت الوجيه المتفاني في حب آل رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله، الذاكر لله تعالى؛ أمين أمناء فاس الحاج المكي ابن عبد الله الأندلسي أصلا، الفاسي قرارا..

وعمه: شيخ علماء الشام، المصلح الكبير، العلامة العارف بالله محمد المكي الكتاني، صاحب الجهود العظيمة في نصرة الإسلام والمسلمين، خاصة ببلاد المشرق العربي والشام.

وعاش في بيت كله علماء ومصلحون ومجددون؛ كما قال فيهم الشاعر:

ما حاز أصناف الفواضل وال — فضائل والعلا إلا بنو الكتاني

ما فيهمو إلا ولي كامل — أو عالم في علمه فرقاني

أو جامع الوصفين جمعا لا يجا — رى أو يساوى قط في ميدان

لو أنصفوا لخطوا بنعلهمو على — هام الورى في سائر البلدان

هم نخبة الدنيا وزينة أهلها — وأمانها من سائر الحدثان

وقال الآخر:

وكل كتان منهم على سمة — أعظم بها سمة برا وإقبالا

كما كان بيتهم مأوى العلماء والزعماء والوجهاء، بل والملوك فمن دونهم، مليئا بأصناف العلوم والمعارف من شتى الوجهات، وقد ساعدت عيشة المترجم في المشرق والمغرب على تلقيح ذهنه وفهومه، والجمع بين الحسنيين: ثقافة المشارقة، ودين المغاربة..

كما أنه عاش في بداية فترة الاستعمار في العالم الإسلامي، وانهيار الخلافة في

المغرب وتركيا، وقيام الحركات الفكرية والثورية والعلمانية والإسلامية بمختلف اتجاهاتها، وكذلك عايش عصر الاستقلال للعالم الإسلامي ودول العالم الثالث. ولكن في الوقت نفسه - بالرغم من ذلك - فقد كثر فيه العلماء والنبغاء في شتى ميادين العلوم والمعارف الدينية، لذلك فقد تسنى له الاغتراف من معينهم، وملازمة بعضهم، والاستفادة من آخرين، ومذاكرتهم أو قراءة كتبهم وأفكارهم..

طلبه العلم وحياته وأعماله الإصلاحية بالمغرب

عاش في المدينة المنورة أربع سنين تفتق فيها لسانه وتفتحت عيناه على حب بلد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله، غير أن الظروف السياسية اضطرت أسرته إلى الهجرة من المدينة المنورة إلى دمشق الشام؛ حيث حفظ القرآن الكريم في رياضها الغناء، وتلقى أساسات العلم، وحضر الكثير من دروس جده؛ خاصة في شرح مسند الإمام أحمد بن حنبل التي كان يحضرها نجباء العلماء والطلبة.

ودرس على مجموعة من أهل العلم بالشام تلك الفترة وبعدها، وحضر دروسهم، وأخذ عنهم؛ كإمام الشام وبركتها الشيخ بدر الدين بن يوسف البيباني الذي كان من أشد الناس صحبة لجده، والخطيب المفتي الشيخ عبد الجليل الدرا، والعلامة المصلح علي الدقر، والعلامة الداعية الأثري هاشم الخطيب، والعلامة المصلح محمد توفيق الأيوبي الأنصاري، والعلامة العارف الأصولي محمد أمين سويد...وغيرهم.

ثم في عام 1345 انتقل مع أسرته إلى مدينتهم الأصلية فاس؛ التي كانت تعج بالعلماء والأئمة الأعلام الذين لا يجارون في العلم والفهم في زمانهم، وحضر دروس جده في جامع القرويين الأعظم بفاس في مسند الإمام أحمد بن حنبل التي ما شهد القرويون مثلها؛ حيث كان يحضرها أكثر من عشرة آلاف شخص، وفي نفس العام توفي جده المذكور رحمه الله تعالى.

وأخذ العلم بفاس عن علماء أهل بيته؛ كوالده المذكور، وخاتمة الحفاظ الشيخ عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني، والإمام أبي الفضل محمد الطاهر بن الحسن الكتاني، والعلامة المؤرخ عبد الرحيم بن الحسن الكتاني، وشيخ الجماعة عبد الله بن إدريس الفضيلي، والعلامة اللغوي عبد السلام بن عبد الله الفاسي الفهري، والعلامة النابغة أحمد بن محمد ابن الحاج السلمي، وشيخ الجماعة الطائع ابن الحاج السلمي، والعلامة محمد بن عبد الحفيظ الشامي الخزرجي، والعلامة الصالح أبي الشتاء

الصنهاجي، والفقيه الأصولي عبد العزيز ابن الخياط الزكاري، والإمام المتضلع الطائع ابن الحاج السلمي، والفقيه الفيلسوف القاضي محمد بن عبد السلام السائح - بل المترجم هو الذي عرف الطلبة به كما أخبرني نجله الأستاذ الحسن السائح رحمه الله تعالى - وغيرهم من أقطاب العلم والمعرفة، ووالده هو عمدته في العلوم وإليه ينتسب، وهو موجهه ووالده الروحي والجسدي.

فأخذ عنهم علوم التفسير والحديث والأصول والفقه واللغة والتاريخ وفلسفة التاريخ والاجتماع والأدب وفلسفة التشريع والتصوف..وغير ذلك من العلوم الغزار.

أما علم الأنساب؛ فقد أخذه عن إمام نسابي المغرب الشيخ عبد الكبير بن هاشم الكتاني صاحب "زهر الآس"، ونجله النسابة الاجتماعي محمد بن عبد الكبير بن هاشم الكتاني صاحب "تحفة الأكياس".

كما رحل إلى طنجة للأخذ عن تلميذ جده الإمام العارف الشريف محمد بن الصديق الغماري، ولازمه مدة استفاد به فيها في العلم والسلوك، وكان كثير التردد إليه؛ لما كان بينه وبين والده وأسرته من خالص المودة.

وزار شتى مدن المغرب؛ كزرهون ومكناس ومراكش، وتطوان التي التقى فيها بشيخ جماعتها الإمام أحمد بن محمد الرهوني، وحافظها الشيخ محمد بن محمد الفرطاخ..وغيرهما. وطنجة، والرباط التي التقى فيها بعالمها الكبير الحافظ الواعية الشريف محمد المدني ابن الحسني وأخذ عنه وعن طبقته، ومدينة سلا التي أخذ بها عن ابني عمه العلامة العارف الشيخ محمد المهدي بن محمد بن عبد الكبير الكتاني، وحافظها ومربيها الإمام العلَم الشيخ محمد الباقر بن محمد بن عبد الكبير الكتاني، وعن شيخ الإسلام أبي شعيب بن عبد الرحمن الدكالي؛ أخبرني - رحمه الله تعالى - أنه زاره صباحا واستجازه وحادثه، وفي المساء بلغه نعيه رحمه الله تعالى.

وفي عام 1352 زار رفقة والده الشام، والتقى بعمه شيخ علمائها محمد المكي الكتاني وبقية علماء الشام. ومنها ذهب إلى مصر ومكث يدرس بها بالأزهر مدة عامين؛ أخذ فيهما عن عدد من أعلامها؛ كمفتي مصر الإمام محمد بخيت المطيعي الحنفي، والعلامة الكبير محمد بن أحمد أبو زهرة، وحافظها أحمد بن محمد شاكر،

ومسندها أحمد بن رافع الطهطاوي، واستفاد كثيرا من صديقه وشيخه الحافظ النقادة الشيخ أحمد بن محمد بن الصديق الغماري خاصة في علم الحديث، وصارت بينهما محبة ومودة تامة. وأخذ بمصر كذلك عن مشاهير علمائها، والتقى بالإمام المصلح حسن البنا[1]. ثم عاد إلى المغرب، واشتغل بالدراسة والتدريس والإصلاح الاجتماعي والسياسي.

وقد وصف في رسالة لوالده مؤرخة بـ: 25 شوال عام 1353 أحواله بالأزهر قائلا: "... مولاي؛ إنني لفي غاية النشاط والسرور والعزة؛ العلماء في الأزهر والطلبة كلهم يشير لي بالأصابع، أحدهم يعرِّفني بالأمير، والآخر بالسيد الشريف، وسيدي السيد، وسيدي الشيخ، والشيخ الكتاني، والسيد الكتاني، ونحو هذا، كل الطلبة يتمنون التعارف معي، ولكني لا أريد؛ لأن أكثرهم لا يوافق طبعي، والعلماء يحترمونني لاتصالي بالشيخ الأكبر، كل البوابة وخدم الأزهر يتسابقون فيما إذا أردت تكليفهم بشيء، ويقولون: نحن خدمك، أنا رهن إشارتك، مُر تُطَع، فأقابلهم بحلو الكلام ومعسول القول إذ لا أحتاج لهم في شيء" ...

وبعد تمكنه من فقه المالكية؛ اتجه إلى فقه الظاهرية مطالعة وبحثا ونقدا، ودرس محلى ابن حزم في مدة من اثنتي عشرة سنة جرد فيها مسائله جردا، وبحثها واستخرج عللها وقارنها بالمذاهب الأخرى، وكان شيخاه في هذه المرحلة : ابن عمه الإمام المجاهد البحاثة محمد إبراهيم بن أحمد الكتاني، والعلامة ابن عبد السلام السائح الرباطي.

وكانت له حافظة قوية وذهن وقاد، بحيث ذكر عن نفسه - كما أخبرني بذلك

---

(1) أخبرني من أثق فيه قال: "في جلسة من الجلسات المباركة - في منزل الشيخ بالمدينة المنورة والبيت مستأجر من وزير الإعلام السابق (حسن الشاعر) والآن دخل في الحرم مع التوسعة الجديدة - ذكر الشيخ الشهيد حسن البنا، فقال سيدي المنتصر: هل تعلمون صلتي بالشيخ البنا؟ قال الحضور: نسمع من مولانا المنتصر. فقال المنتصر: كنت أجتمع به في مصر ثم آخذ منه رسائل لعلماء أعلام في البلاد العربية وغير العربية فأعطيهم تلك الرسائل الدعوية. وذكر عددا من الأعلام أمثال: مصطفى السباعي ومحمد المبارك من سوريا وغيرهم كثير من البلاد العربية والإسلامية فقال أحد العلماء من الحضور: إذن أنت يا مولانا بريد ممتاز للبنا وعرف البنا الرسول الأمين!".

شقيقي الشيخ الحسن الكتاني عنه - أنه قال: "لقد رزقني الله تعالى حافظة ما أودعتها شيئا ونسيته".

ولم يغفل في هذه الفترة عن الرحلة في بلاد المغرب التي زار جل مدنها، وأخذ فيها عن مختلف أعلامها، كما زار الجزائر في عام 1348، والتقى فيها بعلمائها وشيوخها، من أجلهم: الشيخ المربي سيدي أحمد بن مصطفى ابن عليوة المستغانمي رضي الله عنه.

كما زار عام 1370 إسبانيا، وعرج على مختلف مدن الأندلس الكبرى، وزار آثار المسلمين بها، ووقف على أخبارهم وبقاياهم. ووصف بعض مراحل هذه الرحلة في رسالة بعث بها لابن عمه - جدنا لوالدتنا - علامة المغرب الشيخ عبد الرحمن بن محمد الباقر الكتاني، مؤرخة بـ 9 صفر الخير عام 1370 قائلا: "أبعث إليك من قرطبة عاصمة ملوك بني أمية قرونا وقرونا، ومدينة إماميها المفضلين بقي بن مخلد وابن حزم، أكتب إليك بعد أن زرت مسجدها الأعظم الذي هو كمسجد بني أمية بدمشق حذوك القذة بالقذة، سعة وعظمة، وقد صار اليوم كنيسة إسبانيا الجامعة. وأول ما صنعته حين دخلته: أن تقدمت للمحراب وصليت لله تحية المسجد، ثم صعدت صومعته فناديت بالأذان رافعًا به صوتي".

"ثم زرت مدينة الزهراء التي تبعد عن قرطبة بثمانية أميال، فوقفت بين أطلالها وخرائبها، ومن قبل زرت غرناطة فبتُّ فيها ليلتين، وزرت فيها قصر الحمراء وجنة العريف، وهنا لا أدري بماذا أعلق، إذ يخرس اللسان ويدع التعبير لدمع العين الجاري، وللقلب يقذف بآهاته وزفراته قذف البراكين بالحمم:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا
أنيس، ولم يسمر بمكة سامرُ

بلى؛ نحن كنا أهلها، فأبادنا
صروف الليالي والجدود العواثر

ومن رعى غنمًا في أرض مَسبَعة
ونام عنها، تولى رعيها الأسد

"وغداً - إن شاء الله - سأسافر إلى أشبيلية"...

كما زار مالقة في رجب من عام 1372، وقام هناك بالدعوة إلى الله تعالى، وأسلم على يديه بعض أهلها، وأقام بها صلاة الجمعة التي ربما لم تُقم فيها منذ سقوطها، قال رحمه الله في رسالة مؤرخة بـ: الجمعة 25 رجب الفرد 1372 لابن عمه المذكور: "تعرفت فيها بجماعة من العمال المغاربة، وتاجرين، فكنا في أكثر الأوقات لا نفترق إلى ما بعد الثانية عشرة ليلا، وقد كانوا غافلين عن الإسلام وأركانه، فأخذت عليهم العهود والمواثيق بالمحافظة على الصلوات الخمس في أوقاتها، وكنا نصلي جميعا في جماعة بالأذان والإقامة".

"واليوم صلينا صلاة الجمعة وخطبت فيهم خطبتين؛ الأولى: في الإسلام في هذه الديار، وأنه ربما لم تُصَلَّ فيها الجمعة منذ قرون منذ أجبر أهلها على مغادرتها وتنصير من بقي منهم، ولعل أرواح المؤمنين الأقدمين يفرحون لصلاتنا بينهم صلاة الجمعة، والثانية: في خلود الإسلام ونشره في بقاع الأرض، ورجوع هذه الديار للإسلام بإذن الله وقوته...وحضرت الصلاة معنا مسلمة، زوج أحد التجار من الجماعة، وحضرها غلام مراهق إسباني أسلم على يدي، اسمه : خندريتوفا، سميته: عبد الله!".

نشاطه العلمي والدعوي بالمغرب

واستمر في حياته العلمية والثقافية؛ فأسس ودرس في عدة مدارس بفاس وسلا وطنجة، وشغل مديرا لبعضها، كذلك، ودرس العلوم الشرعية والفكر الإسلامي في مختلف مساجد المغرب الكبيرة، وعمل فقيها ضابطا بمحكمة الاستئناف الشرعي العليا بالرباط، وأستاذا للفقه المالكي والحضارة الإسلامية بمعهد الدراسات المغربية العليا في قسم الحقوق بالرباط.

واشتغل أثناء ذلك بالدعوة إلى الله تعالى والتعليم؛ وأسلم على يديه مجموعة من الرهبان واليهود والقسس، وكانت داره مقصدا للمثقفين والمستشرقين منهم خاصة، لما اتسمت به ثقافته من موسوعية وعمق. واستمر أثناء كل ذلك مدرسا في عدة من مساجد المغرب.

وأثناء مقامه بمدينة طنجة عام 1372، أسس فرعًا دعويًا باسم حزب الشورى والاستقلال، الذي عمل معه فيما بعد، وتصدر للتدريس بمسجدها الكبير، وكان يحضر درسه الألوف من الناس، بحيث قام بنهضة دينية وعلمية كبيرة في تلك الربوع، وصفها - رحمه الله - وصفًا دقيقًا في رسائله وكتاباته.

وقد وقفت على ملخص لجهود المترجم - رحمه الله تعالى - في هذه المدينة الغراء بخاصة، وفي الشمال المغربي بعامة، كان مدة إقامته بها يمثل صورة عامة لجهوده العلمية والدعوية في فترة سكناه المغرب، وذلك في رسالة وجهها لابن عمه العلامة الشيخ عبد الرحمن بن محمد الباقر الكتاني مؤرخة بـ: 9 رجب الفرد سنة 1372.

قال رحمه الله تعالى: "نشاطي في طنجة كما يجب أن تعرفه ويعرفه من يريد بواسطتك؛ محصور في الدرس العام الليلي، وقد كان محاضرات منوعة في كل فن ممكن، وفي أيام ثلاثة من كل أسبوع، وإذا به ينقلب بعد إلحاح وإلحاف من الطلب والالتماس إلى خمسة أيام في الأسبوع، كما انقلب من محاضرات إلى

تفسير كتاب الله الكريم".

"وذلك أن جماعة من الحاضرين طلبوا منذ شهرين [تفسير] سورة يوسف، فأجبت الطلب وفسرتها فيما يزيد على شهر، ثم طلب آخرون بعد الانتهاء منها سورة الكهف، فأجبتهم لطلبهم، وقبل إتمامها في الأسبوع الماضي قام جماعة بزيارتي، فيهم خصوم سياسيون، وهم ملازمون للدرس، وفيهم أنصار العائلة، وفيهم شوريون - أتباع حزب الشورى والاستقلال - يطلبون متابعة التفسير من تمام سورة الكهف إلى النهاية إن شاء الله، فأجبت الطلب بارتياح".

"وكنت قد وجدت لذة وفائدة وعلما في دراسة السورتين المذكورتين، وهكذا أصبح الدرس الليلي في التفسير على أنه أحسن شيء وأتمه وأكمله في معنى المحاضرات، فالمدرس يدرس في الأحكام في القصص في التوحيد في الأدب، في الدعوة والأمر بالمعروف...كل ذلك في سورة واحدة، بل في ثمن وربع من حزب واحد، وهي طريقة القرآن الكريم من أوله إلى آخره".

"والإقبال عليه أصبح كبيرا، ويزداد يوما بعد يوم، والحضور اليوم يعدون ما بين الثلاثة آلاف والأربعة آلاف، ويزيدون كل يوم".

"وأعتمد في تحضيري الدرس ومطالعتي: تفاسير ابن كثير، والسيوطي، والبغوي، والزمخشري، والشوكاني...ولا أترك شيئا أتى به الأول والثاني إلا وأتيت به ونثرته على الحاضرين. هذا عملي الأول".

"والثاني: درس الطلبة الذي ألقيه إليهم في الضحى قبل الزوال بساعة، ختمت لهم المصطلح بنظم البيقونية، وشرح الزرقاني، وبعد إتمامه في الأسبوع الماضي (لعله "في الشهر الماضي" كي يستقيم مع انصرام أسبوعين) طلبوا مني برجاء واستعطاف كتاب "الورقات" لإمام الحرمين بشرح الحطاب في الأصول، فاستعنت بالله، وأجبتهم لطلبهم، وقد مضى لنا في تدريسه أسبوعان".

"وعملي الثالث: الاجتماع بالأنصار في الشعب، وإرشادهم وتوجيههم حسب الإمكانيات الموجودة؛ إذ ما من شيء يكون عندكم من اضطراب وبلبلة في الوطنية إلا ويظهر أثرها وينطبع فيها كالمرآة، فقد تجلى الخوف في طنجة، ودعاهم للإغراق في ذلك ملابسات ودوافع".

"وعملي الرابع: ترددي على تطوان مرتين أو ثلاثة في الشهر...الشيء الذي يلاحظ علي ممن يريد إسكات أي صوت وطني مسلم في هذه المدينة الدولية: أن الدروس يقولون: إن فيها دعوة إلى الإسلام الأصيل الخالي من الشوائب، إسلام الصحابة والقرآن والحديث النبوي، وإن معنى ذلك: العزة والاستقلال وسخط الأجانب...إذ هي بعينها دعوة الحركة الإسلامية العالمية، وهذا شيء انتقدوه أو لم ينتقدوه فوجودنا في هذه الدنيا لا حكمة له إلا هذا، فمن يحاول إسكاتنا عن الدعوة لذلك كمن يحاول موتنا، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون!".

جهاده في المغرب

خرج مترجمنا وهو ابن 17 عاما فقط في مظاهرات ضد الاستعمار الفرنسي، فاعتقل وضرب بالسياط، ثم فكه الله تعالى. وكان يشارك في خلايا الحركة الوطنية الأولى، وينشر الوعي في أوساط المجتمع ضد الاستعمار وأطماعه.

وفي عام 1362/ 1942 أسس حزب الخلافة، وانضم إليه في حزبه صديقه وشيخه الشيخ أحمد ابن الصديق الغماري بطريقته الصديقية الدرقاوية، وحاول إحياء الجهاد المسلح ضد الاستعماريين الفرنسي والإسباني مستطاعه، وجمع الناس وألقى خطابات فيهم، يقطع المغرب من أقصاه إلى أقصاه من أجل ذلك...

وقد بنى فكرة هذا الحزب على إحياء الخلافة الإسلامية في المغرب، وطرد الاستعمار، وتحكيم الشريعة الإسلامية، وضمن أفكاره في كتاب "فتية طارق والغافقي" الذي طبع بدار إدريس ببيروت حدود عام 1975، والذي يعد مشروعا متكاملا لنظام الدولة الإسلامية. بحيث يعد حزبه الحزب الوطني المغربي الوحيد الذي ركز على تحكيم كتاب الله تعالى وسنة النبي صلى الله عليه وسلم، وإحياء العمل بهما نظام دولة وحياة.

غير أن حركته لم يكتب لها النجاح بسبب ما عانته من محاربة ما يسمى بالحركات الوطنية الأخرى التي كانت تشي به وشايات كاذبة إلى الملك محمد الخامس -الذي كان مترجمنا في وقت من الأوقات مقربا جدا إليه، ومعدودا من ضمن مستشاريه المقربين - فاضطر إلى حل حزبه وإدماجه في حزب الشورى والاستقلال عام 1370/ 1950، غير أن أفكاره لم تفشل؛ فقد أحياها على أرض الواقع كما يأتي لاحقا.

وأحب تلخيص معاناة مولانا الإمام الجد، قدس سره، في هذه المرحلة المغربية، بكلمة ذهبية قالها في رسالة بعث بها إلى ابن عمه وصهره الشيخ عبد الرحمن بن محمد الباقر الكتاني رحمه الله، مؤرخة بـ: 17 ربيع النبوي عام 1372، قال رحمه الله:

"...أتحدث إليك بكلمات لا بد منها، كالمنار أمام السالك في بيداء تحيط بها وديان ومغاوير": "ذلك أننا آل البيت لا يكاد الداعية الصادق منا يدعو لدعوة إلا ويجد له أعداء خارجيين يحطمونه ويسفهونه، ويفضون الناس من حوله حسدًا وبغيا، فإذا ما انقلب على هؤلاء الذين يكون من برنامجهم الأساسي الحيلولة بينه وبين الناس حتى لا تتأثر الجماهير بجماله وفصاحته، وعلمه وصدقه، وفتنته الناس بمختلف مواهبه من خَلقية وخُلقية، فإذا هو تغلب على الأعداء وجهر بدعوته، ووجد له منصتين ومعجبين؛نبغ له أعداء هم أخطر من الأعداء الخارجيين من ناحية، وأحقر منهم من نواح أخر"..

"أخطر؛ لأنهم أعداء داخليون، وأحقر؛ لأنهم أجبن منهم وأضعف حجة، إذ الأعداء الخارجيون يحاربونك جهارا نهارا، ويضللون القوم بأنك غير صادق في دعوتك، وإذا كنت صادقا؛ فأنت لا تريد بها وجه الله والدار الآخرة، وإنما أنت طالب ملك ودنيا ورياسة!".

"أما الأعداء الداخليون؛ فهم أقدر عادة على التحطيم، لمعرفتهم بالمسالك، واطلاعهم على الدخائل بحكم الاتصال، ولكن سرعان ما تحطم قدرتهم، وتشتبك عليهم المسالك، إذ يكونون مدفوعين - بعد الاعتراف بقدرتك وصلاحك وجهادك - بنوازع نفسية شيطانية حقيرة، من حسد وشعور بالعجز أمامك، وخوف تفوقك عليهم، وخصوصا إذا كانوا - بحكم الظروف - أقدم منك في تلك الجماعة المستعان بها على دعوتك، وأكبر منصبًا ولو مؤقتًا، فهي تصبح في خوف وهلع واضطراب من كسحهم وفضيحتهم، وبيان عوارهم، وخاصة إذا كانوا قليلي الرجال والأكفاء شخصية وعلما واقتدارا".

"وأكبر مثال في ذلك: نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه؛ فلقد كان في مكة كثير من الأعداء الخارجيين، الحائلين بينه وبين نشر دعوته، فلما خار الله له وأخرجوه للمدينة، وأصبح حرا في نشر دعوته كما يشاء؛ ابتلي بالأعداء الداخليين، وهم المنافقون الذين إذا جلسوا إليه قالوا: إنا معك، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا: إنا كنَّا مستهزئين. ولقد تحمل من هؤلاء نبينا صلى الله عليه وسلم الشدائد، وإن كانوا أحقر وأقل شأنا من أولئك كما لا يخفاك..".

"والأمثلة كثيرة في كل وقت وعصر، وخاصة دعاة آل البيت من علي والحسن والحسين وآلهم عليهم السلام. وما لي أبعد النجعة؟ فهذا شهيدنا الإمام ابن عبد الكبير قدس سره تذكر ما تعرف عنه، وسل عنه سيدنا العم المعظم [الشيخ محمد الباقر الكتاني] تجد هذا فيه واضحا وضوح الشمس وقت الضحى".

"كيف والدعوة الحق لا بد لها من محمدي دعوة ودمًا؟! ألم يقل في الثابت عنه: تركتُ فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا: كتاب الله وعترتي. و: المجدد منا أهل البيت؟ ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ ﴾ ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴾".

هجرته إلى المشرق

ثم لما ضاقت به الأرض بالمغرب:

وكـــان مـــا كـــان مـــمـــا لـــســـت أذكـــره

فـــظـــن شـــرًا ولا تـــســـأل عـــن الـــخـــبـــر

رحل إلى دمشق الشام عام 1375/ 1955، ليستقبله أهلها وأعلامها بكل حفاوة وتقدير، بل جل حكام المشرق وقادته وزعمائه الدينيين وغيرهم، بحيث قال في رسالة مؤرخة لابن عمه وشيخه الإمام أبي الهدى محمد الباقر الكتاني، مؤرخة بـ: 20 ذي الحجة سنة 1375: "وبعد؛ فإن روعة عناية الله التي غمرتني منذ غادرتكم، سواء في تونس، أو مصر، أو سوريا، أو فلسطين، أو الأردن، أو الحرمين الشريفين، أخرستني عن أن أفصح بنعمه تعالى علي وآلائه، كرامة ومحبوبية واعتناء، سواء من حكومات وملوك ورؤساء هذه الأقطار، أو شعوبها، هي نعم لو رحت أحكي تفاصيلها ما أديت جزءا من مائة جزء من شكرها، ولو شئت أن أقصها عليكم لحالت الروعة التي أخرست اللسان دون ذلك، إذ سلسلت اليد كذلك حتى يبقى القلب والروح وحدهما الشاكرين مدى وجودهما وسبقهما اللسان على نطقه وإعرابه بالشكر والثناء على الله سبحانه هو كما أثنى على نفسه". وهكذا تابع المترجم له السيد المنتصر حياته العلمية والدعوية بدمشق الشام.

فدرس في جامعة دمشق التفسير والحديث والفقه المقارن بكلية الشريعة، وعين رئيسا لقسم علوم القرآن والسنة في عموم كليات سوريا، ودرس بجامع دمشق وبمنزله بحي الميدان، وكان مفتيا للمالكية بدمشق.

واستمر في الشام داعية إلى الله تعالى، والتقى بزعماء القيادات الإسلامية؛ كالإمام المصلح أبي الأعلى المودودي، ومفتي باكستان محمد شفيع الديوبندي العثماني، والعلامة عبد المحسن الأسطواني، والعلامة محمد إدريس القندهاري اللاهوري،

والإمام المفسر محمد الطاهر ابن عاشور التونسي، والعلامة العارف أبو القاسم الدباغ الحسني، وشيخ علماء الشام أبي الخير الميداني، والأصولي الكبير أحمد بن محمد الزرقا الحلبي، والعلامة الشيخ عبد القادر الحواري الحجازي، والعلامة المجاهد الكبير محمد البشير الإبراهيمي الجزائري الإدريسي الحسني، وكانت بينهما صحبة ومودة خالصة وتعاون.

كما تقوّت علاقته بمصر مع الزعيم المغربي محمد بن عبد الكريم الخطابي، واشتغلوا بالتنسيق جميعا من أجل النهضة بمقاومة الاستعمار في شمال إفريقيا، وتأسيس مكتب المغرب العربي بجامعة الدول العربية، ويقول - رحمه الله - عن علاقته بالخطابي في رسالة منه لابن عمه الشيخ عبد الرحمن الكتاني مؤرخة بـ: 24 ذي الحجة 1375/ 1955: "كما مرت ليلة بيضاء في مصر مع الأمير [ابن] عبد الكريم وأولاده من العشاء إلى شروق الشمس، كان لكم فيها جميعا السهم الكبير، والأمير لا يحسب نفسه معنا أميرا ورئيسا، ولكنه مريد ومحب وتلميذ، تفضلا منه وحسن وفاء للآباء والأجداد جميعا".

ووضع يده في يد عمه شيخ الإسلام بسوريا، والإمام المصلح الداعية إلى الله تعالى أبي الفيض محمد المكي ابن محمد بن جعفر الكتاني مؤسس رابطة علماء سوريا، والذي لم تكن تعين وزارة بسوريا لعدة سنوات إلا بموافقته الشخصية، فعملا على إصلاح البلاد، ومساعدة الحركات التحررية في العالم الإسلامي، وتوجيهها الوجهة الإسلامية، كما كان عليه والده الشيخ محمد الزمزمي - رحمهم اللّه تعالى - وكذا وضع يده في يد الأستاذ الكبير مصطفى السباعي، ونشر مقالات عدة في مجلات "المسلمون"، و"حضارة الإسلام"، و"الشهاب"، و"الكفاح الإسلامي" الأردنية، و"منبر الإسلام" القاهرية، و"الرابطة الإسلامية" الهندية...وغيرها.

وعمل مع عمه المذكور على توحيد سوريا ومصر عام 1381/ 1961 (1378/ 1958) بالاتفاق مع الرئيس المصري جمال عبد الناصر، غير أن ذلك الاتحاد فشل نظرا لتعنت جمال عبد الناصر، ومحاولته استغلال ثروات وخيرات الشام دون مقابل، وبعيدا عن الشريعة الإسلامية فحصل الانفصال في عام 1381/ 1961.

قال - رحمه الله - في رسالة وجهها لابن عمه المذكور يوم الوحدة العربية، من مصر مؤرخة بـ: 11 رجب الفرد سنة 1377: "وبعد؛ فيسعدني أن أكتب إليك عقب الساعات الأولى من ميلاد دولتنا الجديدة "الجمهورية العربية المتحدة"، هاته الدولة التي ننتظر انتشارها إليكم، فهي المنقذ لما فيه بلادنا من فوضى في الحكم والدين والخلق والوطنية والقومية، وقلب الأوضاع ومحاولة مسخ الحقائق، فباركوها بدعواتكم، واجمعوا لها الشيوخ والضعاف والأطفال، واستعينوا بدعواتكم بأن ينصرها الله ويعزها، ويذل أعداءها ويقهرهم، سواء من أعداء الخارج أو المنافقين من الداخل، ولقد جئت إلى هنا أنا والعم [الشيخ محمد المكي الكتاني] المحترم بدعوة كريمة سامية، ونحن ضيوف على الحكومة، ونحن وشيخنا الحافظ [أحمد] ابن الصديق نبني لكم - أقول: لكم وأنا أعني لكم بكل ما تحمله من معنى شخصي ومثلي وعقيدتي - فهو مجد العرب والإسلام، ومجد القائمين بذلك والداعين"...

كما سافر إلى العديد من الدول الإسلامية والأوروبية، لأهداف الوحدة الإسلامية، فزار بغداد ربيع الثاني من عام 1378، ومحرم من عام 1382، والكويت في رجب من عام 1378، التي قال عنها في رسالة لابن عمه المذكور مؤرخة بـ: 25 منه: "وبزيارتي للكويت أدركت عمليا ما كنت أدركه علميا مقدار الثروة الطائلة التي لا تكاد تحصر، التي أودعها الله في أراضي العرب وبحارها، مما يستطيعون بهذه الثروة أن يستغنوا جميعا أو فرادى وجماعات، شعوبا وحكومات، عن أي شيء من الخارج، بل الخارج في حاجة إليهم في كثير من خيرات بلادهم المكنوزة في باطن الأرض والبحر أو على ظاهرهما.."، والمملكة العربية السعودية، ولبنان، ومصر، وباكستان، ..وغيرها.

كما زار مختلف الدول الأوروبية ابتداء من صفر عام 1382، قال في رسالة لابن عمه المذكور مؤرخة بـ: 3 ربيع النبوي، وأخرى في 17منه عامه: "كان هذا تنفيذا لمهمة جامعية، أجوس فيها خلال أوروبا جامعاتها ومكاتبها، وأتعرف فيها على مناهجها وبرامجها..معرفة الجامعات اللاهوتية والكليات كاثوليكية كانت أو بروتستانتية"..فزار السويد، وألمانيا بشقيها، وسويسرا، وإيطاليا، وفرنسا، والدانمارك، زار بعض مدنها، وجميع عواصمها خلا باريز.

ومن هاته الجولة زار - رحمه الله - الجزائر للحضور في حفلات استقلالها، ذلك الاستقلال الذي كان له دور كبير فيه، وفي نصرة المجاهدين الجزائريين، بالتنسيق مع قياداتهم، ومع مختلف المكونات المجاهدة الجزائرية.

كما شغل - رحمه الله تعالى - بالشام عدة مناصب علاوة على ما ذكر؛ منها: محاضر متطوع بجامعة دمشق - علاوة على وظيفته كأستاذ ورئيس قسم بها - والخطابة يوم الجمعة بعدة مساجد بها: مسجد بني أمية، وجامع مازي، وجامع باب المصلى، وجامع الجامعة السورية، وغيرها..وعضوا في المؤتمر الإسلامي، وعضوا في رابطة علماء الشام، وعضوا في مؤتمر الأدباء العرب، وعضوا في لجنة تحرير المغرب العربي بالقاهرة، وضابطا في جيش تحرير المغرب العربي، وعضوا مؤازرا في جمعية طلاب المغرب العربي، وفي المجلس العام لاتحاد الطلاب الجامعيين، وعضوا في مجلس كلية الشريعة، وعضوا في لجنة النشاط الجامعي، وعضوا في المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وعضوا مقررا في لجنة دائرة معارف الفقه الإسلامي، علاوة على العمل فيها كمحرر ومؤلف، وعضوا في "جمعية تحرير المغرب العربي"، وجنديا متطوعا في الجيش السوري..

الانتقال إلى الحجاز

ثم اضطرته الظروف إلى الهجرة من الشام إلى عمان بالأردن ثم منها إلى المدينة المنورة ثم إلى مكة المكرمة بالمملكة العربية السعودية حيث اصطفاه الملك الشهيد فيصل بن عبد العزيز آل سعود مستشارا له، لما وجد فيه من الروح الإسلامية الجياشة، والعلم العميق المتمكن.

وكان انتقاله لسكنى الحجاز حدود رجب من عام 1386هـ فعمل في الحجاز في سلك التدريس في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة التي كان عضوا في المجلس الاستشاري الأعلى لها؛ أستاذا للتفسير والحديث والفقه، والمذاهب الإسلامية والاجتماعية المعاصرة في كلية الشريعة وكلية الدعوة، ودرس الحديث في كلية الشريعة وكلية الدعوة الإسلامية بجامعة الملك عبد العزيز بجدة، ثم بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، وعضوا ومستشارا برابطة العالم الإسلامي.

وكان مواظبا على التدريس بالحرمين الشريفين؛ فدرس بالحرم المكي والحرم النبوي الشريف تفسير القرآن الكريم إلى أن أتمه، والموطأ، ومسند الإمام أحمد...وغير ذلك، متنقلا نصف الشهر في مكة المكرمة، والنصف الآخر بالمدينة المنورة.

وكان منزله - رحمه الله - ناديا لكبار العلماء والمثقفين، وكبار الزعماء والسياسيين، تدور فيه مختلف العلوم والفوائد، والمشاريع السياسية والإصلاحية. بحيث قال لي تلميذه الدكتور أحمد شريف حنوش حفظه الله: "منزل الشيخ بالمدينة المنورة لما يحضر من مكة يعتبر مركزاً ثقافياً؛ حيث يحضره نخبة من كبار العلماء ومن جنسيات مختلفة. وما استفدت منه في تلك الجلسات أكثر من الجامعات التي تخرجت منها حتى الدكتوراه".

وقد أشار على الملك فيصل - رحمهما الله تعالى - بعدة إشارات وجد منه فيها القبول التام؛ منها فكرة: "منظمة المؤتمر الإسلامي"، التي كان ينوي عن طريقها جمع

الدول الإسلامية في هيئة واحدة تكون مقدمة للخلافة الإسلامية الجامعة، وسافر سفرات طويلة إلى مختلف البلاد الإسلامية والتقى بقادتها من أجل إقناعهم بهذه الفكرة، ولتكون في مقابلة جامعة الدول العربية التي هي فكرة بريطانية في الأصل. وقد تمت هذه الفكرة؛ غير أنها لم تستمر كما أراد، نظرا لاستشهاد الملك فيصل - رحمه الله تعالى - بعد ذلك.

كما حاول الصلح بين المغرب والجزائر في أزمة الحدود الشهيرة التي كادت تندلع الحرب بينهما بسببها، حيث أرسله الملك فيصل للتوسط بين البلدين الشقيقين من أجل المصالحة.

وقد اقترح على الملك المذكور فكرة الدينار الإسلامي؛ عملة نقدية يتوحد عليها العالم الإسلامي في مقابلة الدولار الأمريكي، وأن لا تقبل الدول الإسلامية التعامل إلا بهذه العملة، غير أن هذا المشروع أقبر باستشهاد الملك فيصل رحمه الله تعالى.

وهو من رواد فكرة: "موسوعة الفقه الإسلامي"، الأوائل، وتكاد تكون من اختراعه وابتكاره، وكان المقصود منها: تيسير الوصول إلى مظان الفقه الإسلامي؛ خاصة المذاهب الفقهية غير المتبوعة والمنقرضة، وذلك لتيسير إحياء الحكم بالشريعة الإسلامية كما كان الحال في أيام الخلافة الإسلامية المزدهرة..

ولما استوطن سوريا؛ نقل فكرة: "موسوعة الفقه الإسلامي"؛ فعملت جامعة دمشق على إصدار أول مؤلف من نوعه في هذا الميدان؛ وهو كتابه: "معجم فقه ابن حزم الظاهري" في مجلدين باسم موسوعة الفقه الإسلامي، ثم ألف: "معجم فقه السلف: صحابة وتابعين وعترة" في تسعة أجزاء طبعتها جامعة أم القرى عام 1406.

وقد عمل - كذلك - في مجال الدعوة إلى الله تعالى في مختلف القارات الخمسة، وأسلم على يديه وبسببه جمع كبير من غير المسلمين، وألقى محاضرات كثيرة في التعريف بالإسلام والمسلمين.

ففي سنة 1393/ 1973، قام باسم رابطة العالم الإسلامي، بزيارة مطولة إلى

شرق وجنوب شرق آسيا، فزار الهند، وبورما، وتايلاند والفلبين وإندونيسيا، وهونغ كونغ، وكوالا لامبور، وكانتون، وسنغافورة، واليابان، وأستراليا..وغيرها من دول تلك المناطق، هاديا ومرشدا، وباحثا عن الأقليات الإسلامية في تلك المناطق ومشاكلها، واجتمع برؤساء تلك الدول، ودعاهم بشجاعة ومسؤولية لتحسين أوضاع المسلمين وتأمين حقوقهم. وكان له ولنجله - والدنا - إمام الدعوة الدكتور الشهيد علي بن المنتصر الكتاني، الجهد الكبير في توعية المسلمين بأحوال إخوانهم خارج العالم الإسلامي وما تعرضوا ويتعرضون إليه من محاولات لمسخ دينهم وثقافاتهم، وطمسهم من الوجود، والعمل على نصرتهم وتنظيمهم والرفع من مستواهم الديني والاجتماعي.

قال في رسالة بعث بها لابن عمه العلامة عبد الرحمن الكتاني، مؤرخة بـ: 26 ربيع الثاني1393: "وحيثما أقمنا وارتحلنا كنا دعاة إلى الله والإسلام، وقيام دولة "الولايات الإسلامية المتحدة"، وما كان دولا وثنية أو مسيحية عرضنا على أقلياتها الإسلامية خدمتنا لها الخاصة منها والعامة، وتعرفنا على آلامهم وآمالهم، لتكون خدمتنا لهم على أساسها...وأقيمت لنا في كل بلد حللناه مآدب ومهرجانات وحفلات من الرسميين والجماعات الإسلامية، وخطبنا في جامعاتهم وجوامعهم ومنابرهم وحاضرنا في جمعياتهم ونواديهم، وتحدثت عنا صحفهم وتلفزيوناتهم وإذاعاتهم"..

كما قال في رسالة أخرى مؤرخة بـ: أستراليا/ سدني، الاثنين 17 جمادى الأولى منه: "ابن عمي، كانت رحلة موفقة ولله الحمد، أصلحنا فيها بين إخواننا المسلمين في الصين الوطنية، ونكاد نحل مشكلة الفلبين مع حكومتها ومسلميها، فقد ذهبنا لمناطق القتال، وأكرمت الحكومة و[رئيسها] ماركوس وفادتنا، وسمح لنا [ماركوس] أن نتصل بمن نشاء، وفي مناطق الحرب نفسها، ووضع طائرة عسكرية تحت تصرفنا للتنقل بين جزر المسلمين في مناطقهم: مندناو، وصولو، وعرفنا رغباتهم ومطالبهم، واحتفلوا بنا كثيرا، واجتمع إلينا ضباط جهادهم، وسلمونا تقارير هامة بالعربية والإنجليزية، ثم طرنا للعاصمة مانيلا للاجتماع ثانية مع ماركوس، وعرض ذلك عليه كما اتفقنا معه أولا، ووعدنا بإعطائهم الاستقلال الذاتي وإعلان ذلك، ونرجو الله أن يتم ما يقر عين

مسلميهم وعيننا والمسلمين جميعا"..

كما ركز على الدعوة الإسلامية في الأندلس (إسبانيا)، غير أن الكبر أصابه، وتكاثرت الابتلاآت عليه، فقام بعمله نجله والدنا الإمام الداعية العلامة الشهيد الدكتور مولاي علي بن المنتصر الكتاني - رحمه الله تعالى - فقام بذلك أتم قيام وأفضله، جزاهما الله تعالى عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

وتقديرا من الأندلسيين للمترجم - رحمه الله تعالى - سمت حكومة مدينة قسطلة الأندلسية الشارع الرئيس بها باسمه؛ تقديرا لجهوده في إرجاع القومية والهوية الأندلسية إلى الشعب الأندلسي.

وأعماله العلمية والوطنية كثيرة جدا يخطئها الحصر، كل ذلك حملا لهموم الأمة الإسلامية، ومحاولة لإخراجها من ربقتي الجهل والظلم، على مبدأ العلم والجهاد الذي هو - كما ذكر في مقدمة كتابه "فتية طارق والغافقي" - كجناحي طائر لا يطير إذا فقد أحدهما.

حاله وأفكاره

كان - رحمه الله تعالى - إماما من أئمة العصر؛ ذا فكر وقاد، وعقل راجح كبير، وفكرة سديدة، وذكاء مفرط، وهمة عالية، وشخصية متميزة...

كان في أصول الدين والمذاهب الإسلامية القديمة والمعاصرة، والتيارات الفكرية العصـــرية؛ حـــذام أخبارها المصدق، وعذيقها المرجب، بحيث إليه المرجع في ذلك كله.

أما التفسير؛ فقد كان عالما بارعا فيه، تم له تفسير القرآن الكريم بالحرم المكي الشريف مسجل كله على الأشرطة، ثم كتب تفسيرا أتم منه أربعة مجلدات.عارفا للناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه... وغير ذلك من فنون التفسير، علاوة على التفسير الإشاري للقرآن الكريم.

وفي أصول الفقه ؛ كان علامة متمكنا، عارفا بمدارسه واختلافهم واتفاقهم، ومدى استنباطهم، وتطبيق الأصول على الفروع.

وكان - رحمه الله تعالى - وعاء من أوعية الفقه؛ اطلع على المذاهب الأربعة وأقوال أئمتها، والمقارنة بين أقوالهم، واستدلال كل فريق منهم. مع الاطلاع على أقوال الأئمة من المجتهدين المتقدمين والمتأخرين، والاطلاع على فقه الظاهرية والتبحر فيه؛ حتى إنه كان يستدل لبعض مسائلهم بأدلة لم يستدلوا هم بها - كما في الجزء 54 من مذكراته العلمية، مع الـرجوع إلى أئمة مشايخه كقاضي فاس أبي عبد الله السائح - رحمه الله تعالى. بل قال تلميذه العلامة محمد رواس قلعجي في مقدمته لمعجم فقه السلف للمترجم له: "كان شيخي الإمام يستحضر جميع مسائل "المحلى" لا تكاد تغيب عنه مسألة!"..

وقد كان - بالرغم من ذلك - ينتسب إلى مذهب الإمام مالك، وقد درسه على

أئمته من أهل فاس ومصر، وذكر لنا أن أصحابه من آل ابن الصديق الغماريين دعوه إلى ترك التمذهب كلية، والاجتهاد؛ فلما أراد ذلك؛ وجد أن المسألة ليست بالسهلة، فترك ذلك وعاد إلى المذهب. لأن الخلاف ليس في مسائل الصلاة والصيام والعبادات فقط؛ إنما منهج متكامل في العبادات والمعاملات وغيرها من سائر قوانين الحياة. غير أنه كان يرجع إلى الدليل ويخالف مشهور المذهب إن تبين له ذلك، طبقا للأصول والقواعد المذهبية.ثم بعد ذلك ذكر لنا أنه يأخذ من الكتاب والسنة اجتهادا مباشرة،وأنه لا مالكي ولا ظاهري!

أما علم الحديث ؛ فقد كان فارسا من فرسانه، حافظا من حفاظ الحديث في عصره، بحرا لا تكدره الدلاء، مطلعا على طرق الأسانيد، حافظا لتراجم رجالها. وقد قال لي تلميذه العالم الأجل الشريف محمد يحظي الشنقيطي بالحرم المكي: "إن جدك يعرف رجال الحديث كما يعرف أبناءه، لا أقول: أصحابه، إنما: أبناءه!". وأثنى لي العلامة الشريف محمد (الكتاني) بن عبد الهادي المنوني - رحمه الله تعالى - على علم سيدنا الجد؛ خاصة في علم الحديث الذي لم يوجد من يتقنه كإتقانه بين أقرانه بفاس والمغرب، وقال لي: "إن جدك كان محسودا!".

وقد أخبرنا - رحمه الله تعالى - كما سبقت الإشارة إليه؛ أنه ما عهد على نفسه أنه حفظ شيئا ونسيه، وسألته عن مدى حفظه في الحديث؛ فقال: "كثير". ولو علمت أن طريقته في تدريس الحديث كانت بأنه: يحفظ الحديث، ورجال إسناده، وأحوالهم، ويدرس فقهه، واختلاف الأئمة المجتهدين في ذلك، ثم يتلو ذلك في درسه بنغمة خاصة، ذاكرا مرتبة الحديث من حيث الصحة والضعف مجتهدا غير مقلد، كل ذلك من حفظه، وأنه درس البخاري ومسلما والموطأ وأكثر من ثلاثة آلاف حديث من مسند الإمام أحمد...وغير ذلك من كتب الحديث، ورحل من أجل تعلمه وكتب وجمع؛ لعلمت أن الرجل كان حافظا من حفاظ الحديث القلائل، وأنه يحفظ ما لا يقل عن عشرين ألف حديث بأسانيدها ومتونها؛ فهو من الذين تفردوا بهذه الرتبة في عصرهم، علاوة على من أنتجهم من العلماء في الحديث، وما ألفه من التآليف.

وقد حدثني أخونا النابغة الشيخ عصام بن موسى هادي عن شيخنا العلامة

المحدث شعيب الأرناؤوط، أنه أخبره أنه كان يحضر الدروس الحديثية لمولانا الجد بالشام، وأخبر أنه كان يتعجب من سعة حفظه للأحاديث متونا وإسنادا يسردها من حفظه، قال: "وهو الأمر الذي لم يكن معهودا بالشام"، قال: "إنه كان حافظا من حفاظ الحديث"..أو ما في معناه.

وحدثني أخي البحاثة المحقق الشيخ محمد زياد التكلة قال: "قال لي الشيخ سعدي أبو جيب - قاضي دمشق الممتاز سابقًا - في منزله 5 شعبان 1428: سألت أستاذنا بهجت البيطار: على من أدرس الحديث: الألباني أم المنتصر؟ فقال حرفيا: عليك بالسيد المنتصر؛ لأن الشيخ ناصر (الألباني) أجمع، والشيخ المنتصر أعلم". قلت: ولا نسلم بقوله: "الشيخ ناصر أجمع".

أما اللغة بعلومها؛ فقد كان عالما بها مشاركا، متمكنا فصيحا بليغا، مرجعا في ذلك...

وفي الأدب: بحر لا تكدره الدلاء، إمام يجارى به أعلام الدلاء[1] وكأنه تخرج من جامع قرطبة، أو معاهد إشبيلية، أو أنه درس على ابن بسام أو الثعالبي. علاوة على حفظه أشعار وأخبار القدامى من الأدباء وغيرهم.

أما التاريخ القديم والحديث؛ فقد كانت إليه المرجعية فيه، وفي فلسفة التاريخ، يملأ مجالسه بأخبار الأمم السالفة واللاحقة، وقد دون مذكرات لنفسه أربت على مائة جزء...

أما الأنساب؛ فقد كان نسابة عارفا بفروع الأشراف وأصولهم؛ وخاصة الأدارسة منهم، وبالأخص: أنساب الأشراف الكتانيين، فهو المرجع في ذلك، ومنبع أنهار ما هنالك، وعلى شجرته ذيل مولانا الوالد رحمه الله تعالى ورضي عنه.

(1) المقصود: أعلام الزاوية الدلائية بالمغرب، التي عرف أعلامها بالنبوغ في مختلف المجالات المعرفية، خاصة علوم الأدب، ولا أبلغ مثالا من الإمام أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي خريج تلك الزاوية. انظر بالتفصيل عنها وعن أعلامها كتاب: الزاوية الدلائية للأستاذ الدكتور محمد حجي. وقد جرت هذه اللفظة مثلا يوصف به النبغاء في علوم الأدب.

أما علوم الشريعة الباقية ؛ فقد كانت له فيه المشاركة التامة، واليد الطولى، حتى إنه كان إذا اجتمع في مجلس مع علماء أهل بيته ؛ كشقيقه محدث المغرب الشيخ محمد الناصر الكتاني، وابن عمه علامة المغرب عبد الرحمن بن محمد الباقر الكتاني..وغيرهما؛ يخيل إليك أن لسن العلم والأدب والفلسفة الإسلامية العليا قد اجتمعت في صعيد واحد...

قل ما تشاء فأنت فيه مصدق

الحب يقضي والمحاسن تشهد

وقد كانت دروسه - رحمه الله - واسعة العارضة، ملأى بالنقول من حفظه واستحضاره، يلقيها بحال وإقدام، خاصة دروسه الثورية، وقد وصف - رحمه الله - دروسه التي كان يلقيها في المسجد الأعظم بطنجة، في رسالة بعث بها إلى ابن عمه جدنا العلامة عبد الرحمن الكتاني - رحمه الله - مؤرخة بـ: 17/ 3/ 1372 قائلا: "..يحضرها الآلاف من علماء فمن دونهم، ولقد سمعت - والله - تفضيلها على دروس أحمد ابن الصديق، وعلال والناصري، وأن أهل طنجة منذ زمان من أيام عبد الله السنوسي لم يروا مثلها"..

قال: "وكيفية الدرس: أن أحضره من قبل جملة آيات وجملة أحاديث تساند بعضها وتؤازره في الدعوة في عزة الإسلام وخلوده، في الشورى، في التصوف، في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..وبعد تحضيره آتي للمسجد فأمليه بعربية فصحى نقية عن ظهر قلب، مع تخريج الأحاديث ونسبتها لأصولها من أمهات السنة ودواوينها، لا أتوقف ولا أتلعثم ولا أقول كلمة لا معنى لها إلا للتعكيز والتوقف كما جرت عادة الكثيرين".

"ولقد رأيت - والله - علماء أجلة يلازمون درسي وهم يبكون، وعندما أقوم من الدرس يلتفون حولي مقبلين ومتمسحين وداعين بالنصر على الأعداء والظفر"..

وكان - رحمه الله تعالى - طلبة للكتب ؛ لا يتركها وإن تركته، ولا يملها وإن ملته، حتى ذكر زملاؤه في الدراسة أنه كان يبقى ساهرا طول الليل إلى الصباح مطالعا ودارسا، وكذلك بقي إلى أن أقعد آخر عمره؛ يسهر الليل في المطالعة والعبادة إلى

الضحى، ثم ينام إلى قبل الظهر بساعة، وينام القيلولة ساعة أو ساعتين، ولا يغير نظامه هذا إلا نادرا..

أخبرني أحد تلامذته الشيخ الدكتور أحمد شريف حنوش قال: " قص علينا شيخنا السيد المنتصر الكتاني في منزله بالمدينة المنورة وبحضور الشيخ عمر ملاحفجي المشهور بـ: "أبو قبقابة"، فقال المنتصر رحمه الله: قبل الزواج كنت أبحث عن كتاب نفيس ولم أجده، وأخبرت أقراني وأحبابي من طلبة العلم أن من يحضره لي فله مكافأة. ومضت الأيام، وإذا بأحد أصدقائي يجد الكتاب، ووافق ذلك أيام زواجي، وصديقي هذا من أهل النكت واللطائف. جاءني في توقيت عجيب. وأنا أزف لعروسي ليلة العرس بموكب يحضره جمع غفير، ومن على يميني والدي، ومن على يساري عمي، في آخرين من الأقارب والأصحاب، وإذا بصاحبي هذا يخترق الموكب ويعانقني، ثم يخرج من غطاء الرأس للبرنص التي على ظهره الكتاب الذي أبحث عنه، عندها نسيت أني عروس، ونسيت أني أزف في موكب مهيب، ونسيت أن والدي على يميني، فأخذت الكتاب وشرعت أقلبه. فإذا بالوالد ينهرني ويقول: منتصر؛ هادا وقته؟! خجلت وأمسكت الكتاب خشية أن يأخذه الوالد مني، ثم انتهى المطاف بوصولي للبيت، واستقبلت من قبل والدتي وأخواتي والنساء وقد زففن لي العروس. وما أن خلوت بالعروس في البيت حتى أمسكت الكتاب وكأني سألتهمه؛ لكن أم علي (العروس آنذاك) ما أعجبها تصرفي، وصبرت عليَّ قليلاً، إلا أن صبرها نفد، وإذا بها تخطف الكتاب من يدي وتلقيه لأقصى الغرفة، وقالت: منتصر؛ أنا عروسك، والليلة ليلة عرس! وهنا لمَّا ألقت الكتاب تألمت كثيرًا إلا أني ضبطت نفسي.هـ".

"لمَّا أنهى الشيخ القصة ضحكنا، وقال الشيخ عمر ملاحفجي: يسلم دِيات (يدا) أم علي، أنا أُؤيدها يا مولانا. ضحك الشيخ وضحكنا معه. هذه القصة أذكرها للجدة حفظها الله".

وكان السبب في نهمه على المطالعة - كما حدثني والدي عنه - أنه شكا إلى ابن عم والده وشيخه الإمام محمد إبراهيم بن أحمد الكتاني قلة اصطباره على المطالعة - وهو في يفاعته - فقال له ابن عمه: "عندي دواؤك إن اتبعتني!". فأعطاه قصصا

صغيرة، وكلما أنهى واحدة يعطيه أخرى، ثم أعطاه قصص جرجي زيدان واحدة بعد الأخرى، ثم كتاب "ألف ليلة وليلة"؛ فالتهمها التهاما، ثم قال له: "أما الآن؛ فلنبدأ بالجد!"، وأعطاه الكتب الكبيرة والمتخصصة في العلوم. وفي ذلك الوقت كان من السهل عليه قراءة تلك الكتب؛ لأن الأمر أصبح عادة وهواية لا تكلفا!

أما سياسة العصر؛ فقد انتهت إليه معرفتها والتنبؤ بمستقبلها، كل من جالسه أو عاشره أو عرف سيرته؛ جزم بذلك، وكانت له اليد البيضاء على الأمة في ذلك قدر مستطاعه الفردي.

وكانت له محبة غير متناهية في الأمة الإسلامية، غيورا عليها، دافعا عمره وماله وجاهه من أجلها وأجل إعزازها. بل إن أردت اختصار حياته في لفظة واحدة، فقل: "محاولة النهوض بأمة الإسلام!". وقد عمل الكثير الكثير من أجل ذلك، وأصيب بمحاربات ونكبات شديدة كانت هي السبب في سكناه المغرب ثم الشام ثم الحجاز...ثم الرجوع إلى المغرب.

فإنه لم يكن كباقي الفقهاء العاديين، أو ممن ليس لهم اعتناء بالواقع ومعرفته، فقد كان يرى أن الإسلام مصحف وسيف، دعوة ودولة، علم وعمل..وأنه يعلو ولا يعلى عليه، حكيما في أفعاله وأقواله وحركاته.

وكان دائم الحسرة على ما وصل إليه المسلمون من ذلة وصغار وهوان على الناس، وخنوع وسقوط همة، والرضا بالدون، وترك العلم الشرعي الذي هو أساس الإسلام، والاكتفاء بالقليل دون الكثير منه ومن غيره.

رادًّا على المستشرقين وكذباتهم، وهجومهم على الإسلام والمسلمين في مختلف مؤلفاته وندواته وخطبه، مظهرا عوارهم وتآمرهم على الإسلام والمسلمين، حتى صدق فيه ما خرجه غير واحد من الأئمة عن جمع من الصحابة بسند حسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله قال: "يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين...".

وكان شديد البغض لمن يسمون بالإصلاحيين من أتباع جمال الدين الأفغاني

ومحمد عبده، ويعتبرهما من أسباب بلاء الأمة وانتكاس أهلها، وانحرافهم الفكري.

وكان ينبذ التفرنج وتقليد الغربيين في الهيأة والفكر واللباس..وكل شيء داعيا إلى العروبة، يعتبرها هي أساس الإسلام، ويرى أن كل من تكلم بالعربية فهو عربي، رافضا للشعوبية الرعناء، والقومية الجهلاء، فهو لا يحب القوميين العرب ولا الشعوبيين الجهلة.

وكانت بينه وبين العلامة الحاج أمين الحسيني محبة تامة، ومودة خاصة، وكان يدعمه في كل نشاطاته التحريرية، وعندما بلغه نعيه؛ بكى عليه - على رباطة جأشه - بكاء مرا. رحمهما الله تعالى.

وكانت له محبة كبرى في رسول الله صلى الله عليه وسلم، دائم الثناء عليه والذكر لسيرته، وإذا سمع القصائد في ذكر سناه ومزاياه؛ تفيض عيناه شوقا إليه صلى الله عليه وسلم. يذكر شمائله، وينشر حديثه، ويقرأ كتب السيرة والشمائل النبوية بلهف واستنباط ومقارنة. دائم الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم في حله وترحاله، وإذا شكوت إليه منقصة فيَّ؛ يقول: "أكثر من الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم!"، فأجد الدواء في ذلك. جزاه الله خيرا. كما كانت له مراء لرسول الله صلى الله عليه وسلم مناما ويقظة لا يسع المقام لذكرها.

وكان له اعتقاد كبير في الصالحين وأهل الخير والدعوة إلى الله تعالى، ذابًّا عنهم، محبا لهم، معدودًا من أعيانهم، صاحب أذكار كثيرة وصلوات، بحيث لا يفتر لسانه عن ذكر الله تعالى؛ فهو بين علم أو تدريس أو تأليف أو ذكر.

حدثني عمي السيد محمد الزمزمي الكتاني، قال: "عدت أنا والوالد الشيخ العارف بالله سيدي محمد بن الحبيب الأمغاري - وهو من كبار شيوخ التربية العارفين في وقته - فلما أردنا الانصراف، التفت إلى السيد الوالد وقال له: أعطيناكها أعطيناكها!". ولم تمض فترة نحو أسبوع حتى توفي الشيخ في الجزائر في طريقه للحج. ومعلوم أن الشيخ ابن الحبيب - رحمه الله تعالى - كان ينسب لمقام القطبية. والله أعلم.

وكان يكره ما وصل إليه صوفية العصر من الانحطاط والانحراف عن الجادة،

وتركهم لمنهج مشايخهم الأوائل؛ كالشيخ عبد القادر الجيلاني، والشيخ عبد السلام ابن مشيش الإدريسي الحسني، والشيخ أبي العباس الرفاعي، والشيخ أبي الحسن الشاذلي...رضي الله عنهم، الذين قارنوا العلم بالعمل، والدعوة إلى الله تعالى والذكر بالجهاد في سبيل الله تعالى.

وكان ضد ما وصل إليه دعاة السلفية من الغلو في أفكارهم، وقلة العلم، ونبذهم لجميع ما كان عليه المتأخرون واعتبارهم ضالين مضلين، ويعيب عليهم تركهم العمل مقرونا بالعلم كما كان عليه الشيوخ الأوائل؛ كأئمة السلف، والإمام ابن تيمية والحافظ ابن القيم رحمهما الله تعالى.

وينزعج من ترك التيارات الإسلامية المتأخرة للمنهج العلمي، وتشدقهم بالآراء والأفكار بعيدا عن العلماء الذين هم - في الحقيقة - ورثة الأنبياء.

وكان جميلا في شكله وهيئته، ذا نخوة، يحب الجمال والتجمل في الثياب؛ وراثة ورثها من جده رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله، ويحب التعطر والحلوى والمناظر الجميلة، أندلسيا في مشربه وأسلوبه وشعوره..حتى كناه شيخه الإمام أبو الهدى محمد الباقر الكتاني بأبي الشعور .!

وكان ذا هيبة كبيرة، وشخصية قوية للغاية، لا يرضى بالدون ولا يقبله، أبيا يهابه ويوقره الملوك فمن دونهم، وله - رحمه الله تعالى - قصص كثيرة قد تذكر في المطولات إن شاء الله تعالى.

منها: ما أخبرني الدكتور أحمد شريف حنوش حفظه الله تعالى قال: "قص علينا شيخنا الشيخ محمد المنتصر الكتاني - رحمه الله - في منزله بالمدينة المنورة فقال: مرة كنا في جلسة استشارة مع الملك فيصل - رحمه الله - نتبادل الحديث في مسألة فقهية، وإذا بالشيخ عبد الله ابن حميد مفتي المملكة آنذاك، يبدي رأيه في المسألة، واعتمد فيها على ما جاء في المذهب الحنبلي، وتكلم الملك ومن في المجلس، وكأن الغالبية أيدوا رأي المفتي ابن حميد. وإذا بالملك فيصل ينظر إليَّ ويقول: ما تكلمت يا شيخ محمد المنتصر؟ فقلت: انتهيتم جميعاً؟ فقال: نعم. قلت: القول الراجح خلاف ما

قلتم، رغم كوني مالكي المذهب إلا أن الحق أن يتبع في هذه المسألة الحق ما قاله الأحناف للأدلة التالية. وشرعت أسوق الأدلة وأنسب ما أقول للمصادر في المذهب الحنفي حتى ذكرت المجلدات وأرقام الصفحات التي أستشهد فيها. وإذا بالملك فيصل يقاطعني ويقول: ما ذكره سماحة المفتي أراه مناسباً. هنا انفعلت وقلت باللهجة المغربية: اسمع؛ المسألة فقهية بحتة؛ دع القول فيها للعلماء. ثم قمت من المجلس دون أن أستأذن، وقلت: السلام عليكم. وخرجت للمطار ثم لجدة ومكة. وبعد ذلك حدثني أحد الحضور فقال: لمَّا خرجتَ يا منتصر؛ خيَّم على المجلس السكون، والكل ينتظر ما سيقول الملك فيصل، وإذا بالملك يقول: بارك الله فيك يا منتصر؛ إنك رجل لا تخشى في الله لومة لائم، نِعم المستشار أنت، وأنا بحاجة لأمثال هذا الرجل!".

"ويتابع المنتصر فيقول: لمَّا بلغ ما صنعت معالي الشيخ سرور الصبان؛ أمين عام رابطة العالم الإسلامي آنذاك، جمع بعض رجالات مكة من الوجهاء، وطلب مني أن أصحبهم لزيارة الملك فيصل. فقلت له: يا سرور؛ أذهب معكم ولكن لا أعتذر؛ لأني ما قلت إلا الحق الذي أعتقده! فقال الصبان: الملك فيصل أسمى من أن يطلب منك اعتذارا. وهكذا سافرنا للرياض واستقبلنا الملك وكأن شيئاً لم يكن. وتابع المنتصر قائلاً: الملك فيصل رجل ويعرف الرجال!".

والشيخ المنتصر - رحمه الله تعالى - لم يكن بدعا في ذلك، فقد روي نفس الموقف عن جد والده شيخ الإسلام جعفر بن إدريس الكتاني، أنه في مجلس الإفتاء بين يدي سلطان المغرب الحسن الأول رحمه الله تعالى، كان إذا لمس ضيما أو ظلما غضب ولبس نعاله وخرج من المجلس غير مبال بأحد.

وكانت تحصل له كرامات كثيرة وكشوفات[1] ومساعدات من الله تعالى يعلمها

(1) قال لي الشيخ أحمد شريف حنوش التركستاني، من تلامذة مولانا الجد قدس سره "أذكر لكم ما حدث معي شخصيا في عام (1975م) الموافق عام (1374م) كنت في السنة أولى بكلية الشريعة بالجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، وقد تعرفت على الشيخ من أول أسبوع من دوامي بالجامعة الإسلامية، ولما تخرج الأخ (عربي بروحو) المغربي من كلية الشريعة وسافر للمغرب، طلب مني الشيخ أن أستلم مكانه فأقرأ المسند في الحرم على الشيخ مكان الأخ عربي ومن ذلك الوقت لازمت الشيخ في الحرم وفي البيت، وأثناء تحضير الشيخ للمسند في البيت كان يحتاج =

كل من عاشره وعامله، وذلك لما كان له من الهمة القوية في الله تعالى، والأذكار الكثيرة، والمحبة في جناب الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله والدين الإسلامي الحنيف، وأخباره في ذلك تعد من الغرائب.

إذا لـم تـر الـهـلال فـسـلـم

لأنـاس رأوه بـالأبـصـار

وقد كان مواظبا على تربية أبنائه وحضهم على محبة الإسلام وأهله، والغيرة على تعاليم الدين الحنيف، والمواظبة على شعائر الإسلام؛ خاصة الصلاة التي لم يكن يتهاون فيها، وكانت له دروس لأهل بيته يومية بعد العصر يوجههم ويثقفهم فيها، وعند ختمه للقرآن الكريم الذي كان مواظبا على ختمه كل شهر؛ يجمع جميع أفراد البيت - حتى الخدم - لحضور الختمة، ويدعو للجميع ويأمرهم بالدعاء لأنفسهم، حتى عمّت الروح الإسلامية في جميع أبنائه وبناته وأصهاره وأحفاده وأبناء أحفاده، لا يعرف متهاون في الصلاة منهم، أو حامل للأفكار العلمانية أو الحداثية.

= أحياناً الرجوع للمعجم المفهرس لألفاظ الحديث الطبعة الأولى التي في وقتها لا يوجد منها في المدينة المنورة سوى نسخة الشيخ ونسخة ثانية فقط عند الشيخ حماد الأنصاري، حيث ثمن النسخة آنذاك (3000) ريال سعودي وحجم المعجم كبير، وكان يتعب الشيخ عند استخدامه، لذلك كان يطلب مني أن أخرج الأحاديث بعد أن علمني طريقة التخريج وكان يقول: "بتريحني يا أحمد وبتستفيد أنت" " وذات يوم وأنا خارج من الحرم النبوي ومن باب المجيدي فإذا أرى تجمعا عند المكتبة والطلبة يشترون المعجم المفهرس وقد صدر بطبعته الجديدة وبحجمه الصغير، فاشتريته وأخذته هدية للشيخ، ففرح به ولم يقبله مني هدية، بل قال: اهتمامك بي وإحضاره لي يعتبر هدية يا أحمد، عندها سألته أن يمليني الطبعات الخاصة بكتب السنة التي توافق المعجم لأقتنيها جميعاً، فقال لي: لا تتعجل، كتب السنة الآن بطبعات مختلفة وأحجام مختلفة، اصبر قليلا ستطبع في المستقبل مجموعة وبحجم موحد، وأكثر من ذلك تضعها بجيبك هكذا ووضع يده في جيبه. في تلك اللحظة فهمت أنه يطمنني على توافرها في السوق وأنها بحكم وجودها معي. دارت الأيام وإذا بدار سحنون ودار تركية تشتركان في إخراج موسوعة السنة بثوب واحد وحجم واحد ولون واحد في (22) مجلد فقلت: هذه واحدة وهي كرامة للشيخ. ثم بعد فترة قصيرة وإذا بالكمبيوتر يظهر وتسجل الموسوعة على سيدي (CD). ولما حصلت عليه وضعته في جيبي وقلت: رحمك الله يا مولانا، صدقت وقد ألهمك الله في وقتها، وكنا لم نسمع بالكمبيوتر آنذاك" .

وكان اعتقاده اعتقاد السلف الصالح وأهل الحديث الشريف، لا يخرج في ذلك عن أقوالهم وأحوالهم قدر فهمه وعلمه، حاضا على الرجوع إلى السلف الصالح في الفهم، والابتعاد عن الفلسفات الأجنبية عنا، مبتعدا عن كل ما فيه تفرقة بين المسلمين، متعاونا في الخير ونصرة الإسلام مع الجميع. محبا لآل البيت حبا جما، وللصحابة الكرام جميعهم، تاركا الخوض فيما كان من التنازع بين الصحابة، معظما لجميعهم، مترضيا عنهم دونما استثناء، يرى أنهم تلاميذ خير أستاذ صلى الله عليه وسلم وعلى آله، فهم من العظمة بقدر مقدارهم - رضي الله عنهم أجمعين.والحاصل؛ فقد كان كتانيا بما يعنيه هذا اللفظ من مدلول!

آثاره رحمه الله تعالى

ترك مترجمنا - رحمه الله تعالى - آثارا كثيرة؛ منها: أعماله وتلاميذه ومؤلفاته. أما أعماله؛ فقد أشرت إشارة عابرة إليها، وأتكلم عن تلاميذه ومؤلفاته بإذنه تعالى:

١ - تلاميذه :

ترك المترجم - رحمه الله تعالى - تلاميذ كثرا في مختلف البلاد الإسلامية وغير الإسلامية؛ خاصة في المغرب والهلال الخصيب، منهم المصلحون والمجددون والعلماء العاملون...

منهم: **ولده الأكبر**؛ والدنا الإمام القائم بالدعوة إلى الله تعالى في القارات الخمس، الذي أفنى عمره وماله في الدعوة إلى الله تعالى، العلامة البارع في العلوم العقلية والهندسة والطاقة، والتاريخ والأقليات الإسلامية والتنظيم؛ بحيث إليه المرجعية في كل ذلك، الأستاذ الدكتور محمد علي، المستشهد - رحمه الله تعالى - بقرطبة عام 1422، فهو خليفته في أفكاره والدعوة إلى الله تعالى.

ومنهم : محدث المغرب الشيخ عبد الله بن عبد القادر التليدي الطنجي، والأستاذ الإمام سعيد حوى الحموي، ومحدث الحجاز محمد بن علوي المالكي المكي، والأستاذ الداعية الكبير عبد السلام ياسين - وهو ممن تأثر به كثيرا في مجال الدعوة إلى الله تعالى - والمحدث المؤرخ خليل ملا خاطر المدني، والعلامة النظار محمد بدر الدين بن الشيخ عبد الرحمن الكتاني، ومفتي العراق العلامة الشيخ عبد الملك السعدي العراقي، والمحدث الداعية الدكتور همام سعيد الأردني، والشيخ الداعية إلى الله نافع العلواني الحموي، والدكتور العلامة محمد رواس قلعجي الدمشقي - وهو وارثه في علم الموسوعات الفقهية - والشيخ الدكتور رجاء غبجوقة، والأستاذ الدكتور صالح رضا، والشيخ المربي أديب الكيلاني، والعالم المخلص عصام

عرار الحسني الدمشقي، والأستاذ الداعية محمد هشام البرهاني الدمشقي، والعلامة الدكتور محمد عجاج الخطيب، والعالم النزيه المدرس إبراهيم بن شعيب الهوساوي المكي، والعالم الدكتور علي الفقير وزير الأوقاف في الأردن سابقاً، والعالم الشيخ مظهر القيمة الحموي، والأستاذ الدكتور نزيه حماد الحمصي، والدكتور محمد توفيق ابن محمد تيسير المخزومي الدمشقي، والدكتور عبد اللطيف بن صالح فرفور الدمشقي، والداعية عبد القادر قويدر الدمشقي، والدكتور محمد فاروق النبهان الحلبي المغربي، والعلامة القاضي سعدي أبو جيب، قاضي دمشق الممتاز، والخطيب الواعظ محمد بن موسى الفاسي، والمحدث الدكتور فاروق حمادة القنيطري، والعالم المحدث المؤلف محمود سعيد ممدوح المصري الإماراتي، والأستاذ الدكتور عامر حسن صبري أستاذ الحديث وعلومه بجامعة الإمارات العربية المتحدة، والمؤلف المناظر حسن بن علي السقاف الأردني، والعالمة الداعية إلى الله تعالى السيدة منيرة القبيسي الدمشقية؛ وهي ممن تخرج به، وشقيقنا العلامة الداعية إلى الله تعالى الأستاذ مولاي الحسن بن علي الكتاني، وكاتب هذه السطور عفا الله عنه، وغيرهم آلاف...حفظ الله الأحياء ورحم الأموات بمنه تعالى وكرمه.

وغيرهم وغيرهم وغيرهم
كقطر ماء لا يفيض غيرهم

2 - مؤلفاته :

ترك - رحمه الله تعالى - مؤلفات كثيرة في مختلف الفنون، وقد كان أبعد ما يكون عن الردود؛ لأنه رأى أن يكون سببا في إصلاح الأمة الإسلامية لا سببا في تفرقتها وانقسامها. وأذكر هنا بعضا من مؤلفاته:

1. نظام الدولة الإسلامية، المسمى: "فتية طارق والغافقي".
2. ترجمة القاضي عياض.
3. ترجمة الإمام الغزالي.
4. تقديم وتحقيق لكتاب جده: "الرسالة المستطرفة".

5. تفسير صوتي للقرآن الكريم، تام في أكثر من 500 شريط.

6. فاس عاصمة الأدارسة. ط.

7. ترجمة الحافظ ابن تيمية.

8. ترجمة الإمام مالك. ط.

9. ترجمة جده الإمام محمد بن جعفر الكتاني. نشرت مقدمته بمجلة الرسالة، عام 1952م.

10. ترجمة جد جده أبي العلاء إدريس ابن الطائع الكتاني.

11. ترجمة الحافظ ابن حزم الأندلسي.

12. ترجمة شيخه العلامة عبد الرحمن بن القرشي الإمامي.

13. ترجمة شقيقة الفيلسوف محيي الدين الكتاني.

14. ترجمة حافظ الأندلس بقي بن مخلد الأندلسي.

15. تخريج أحاديث كتاب "تحفة الفقهاء" في فقه الأحناف لأبي الليث السمرقندي، بالتعاون مع العلامة الدكتور وهبة الزحيلي. طبع في سوريا- دمشق - على هامش التحفة في أربع مجلدات سنة 1965م.

16. جهاد أسرة.

17. الدولة الإسلامية المنتظرة.

18. ذيل على الشجرة الكتانية في الأنساب للشيخ عبد الكبير بن هاشم الكتاني.

19. الرحلة الجزائرية عام 1347.

20. شرح موطأ الإمام مالك تسجيل صوتي أتم منه نحو ثمانين شريطا.

21. شرح وتخريج مسند الإمام أحمد. أتم عشره في ستة عشر جزءا.

22. كتاب في آل الكتاني.

23. معجم فقه السلف صحابة وعترة وتابعين.9 أجزاء. ط.

24. معجم فقه ابن حزم الظاهري. مجلدين. ط.

25. المعذبون في الله في القرون الفاضلة.

26. المستدرك على "نظم المتناثر في الحديث المتواتر". ضمنه ألف حديث

27. مذكرات في أكثر من مائة جزء ضمنها من كل فن طرفا.

28. مذكرات علمية. في عشرات الأجزاء.

29. المعقب في رجال الحديث. عقب فيه على الحافظ ابن حجر وغيره من أئمة علم الرجال.

30. مؤلف في إثبات التدوين في القرن الأول الهجري، والرد على المستشرقين الذين ادعوا أن التدوين لم يكن إلا في القرن الثاني.طبع في مقدمة تخريجه لأحاديث "تحفة الفقهاء".

31. مسند الإمام بقي بن مخلد الأندلسي. جمع.

32. مسند الإمام ابن حزم الأندلسي. جمع. 33. مراحل تبع. في الأدب والتاريخ والعبر. في عدة مجلدات...وغير ذلك.

وفاتــه

وبعد عمر كله جهاد وكفاح، ونضال وعلم، ونشاط قل مثيله؛ أقعد في مكة المكرمة بسبب وقعة وقعها انضافت إلى ما كان به من مرض السكري وضغط الدم، وما أغم نفسه من حالة المسلمين المتدهورة يوما بعد يوم. ومما زاد نكبته النفسية؛ أنه منع من التدريس بالحرمين الشريفين بحجة أنه ليس "سعوديا!"، وهو لم يذهب إلى الحجاز أصلا ويرتضيها مسكنا إلا للقرب والتدريس في الحرمين الشريفين اللذين هو من سلالة بانيهما، ومولود وناشئ بهما .!!!

وكانت إصابته عام 1406، فأقعد، وما منعه ذلك من إكمال ما تيسر من بعض مؤلفاته، ثم في عام 1409 انتقل إلى الرباط بالمغرب تاركا الحجاز الذي امتزج حبه بطينته ولحمه ودمه.

وفي المغرب كان يتوافد عليه بعض المخلصين من طلبة العلم والعلماء لزيارته واستفتائه في مختلف القضايا العلمية، وبالرغم من سوء صحته؛ كان يجيب عن كثير منها بأتم وأوفى تحقيق ما لم يكن يفعله الأصحاء من بعض الأئمة في هذا العصر، بالرغم من إغمائه لمدة تقارب العامين أو تزيد، الأمر الذي كنا ندهش له؛ سواء في الفقه والحديث والتاريخ...وغير ذلك.

كما كانت تتقاطر عليه الرسائل والطلبات من مختلف البلاد؛ من المغرب وتونس والجزيرة العربية عامة، واليمن والكويت والهند والشام والأردن...يطلبون منه الإجازة بالرواية عنه مصرين ومتلهفين إلى هذه الكرامة، حيث إن إسناده في هذا العصر يعد من أعلى الإسناد. وفي هذا الاتجاه كتبت باسم مسند نجد العالم الأغر الشيخ محمد ابن عبد الله الرشيد ثبتا لمولانا الجد جمعت فيه أهم أسانيده للكتب التسعة والحديث المسلسل بالأولية، وختمته بترجمة مقتضبة له، وسميتــه: "فتح السد عن أسانيد مولانا الجد"، فكان مولانا الجد يجيز به من طلب منه الإجازة.

وفي الثلاثاء الثامن من صفر الخير لعام تسعة عشر وأربعمائة وألف الموافق 2 - 6 - 1998 الساعة الثانية عشرة والنصف ظهرا تقريبا؛ انطلقت روحه المباركة إلى بارئها منهية بذلك تاريخا مجيدا حافلا، وممثلا رجلا من أواخر من مثل السلف الصالح وعلماء الصدر الأول في علمه وهيأته وتفانيه من أجل الإسلام والمسلمين. ووجدت سبابته منتصبة على هيئة المتشهد في الصلاة.

ودفن اليوم الموالي - وهو يوم الأربعاء - في مقبرة الشهداء بالعلو، بمدينة الرباط، ملاصقا لقبر والدته - رحمهما الله تعالى - بعد أن حمل في جنازة عظيمة مهيبة إلى مثواه ومستقره الأخير. وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من كان آخر كلامه من الدنيا: لا إله إلا الله؛ دخل الجنة!". وشهد بعض أبنائه أن رائحة العطور بقيت بمحل وفاته ثلاثة أيام.

مراثيه

رثي مولانا الجد - قدس سره - بعدة قصائد، منها: قصيدة كتبتها في الموضوع، ونصها:

هي المقادير جاءت حيث تقتدِرُ
وحُكمها حَكَمٌ به الورى أُسروا

لها التقلبُ في الأمرين من سعة
وضيق حال على الأعلام ينتشرُ

وقد أتى الذكرُ بالإخبار أن لها
من المهيمن أمر ما له قرَرُ

اعجبْ لها كيف سارت في تقلبها
منها السرور، ومنها القلبُ يعتصر

وحال أمتنا خُبرٌ كفيلٌ بها
فانظر رعاك الإله إن أتى الخبر

كانت لنا عزةٌ فوق الجباه، لنا
خطوٌ ومُلكٌ عظيمٌ فيه نزدهرُ

وحكم روما أتانا بالخضوع، له
ذلٌّ وهونٌ، وإقبال، ولا دُبُرُ

وفارسٌ مذ دعاها السيفُ جاءت بلا
أمرٍ ولا وجَلٍ، بالدين تأتمر

والآن قد ذهب الأعلام والعلما
والدين والعز والإقدام والظفَرُ
يا ويح قلبي لما قد اعتراه من الـ
ـهم العصيب ومن أدماءَ تَختمر
يا ويح نفسي براها الضرُّ من سقَمٍ
والبوس، والدمعُ فيّاضٌ له دررُ
يا ويح روحي وويح الذات كيف غدت
مثل البهار تذوبُ، الدهرَ تعتصر
قلت: اصبري يا حياتي وانظري رُبَما
يأتي الإله بأمر منه يستطر
قالت: لقد ذهب الأهلون لا لا، ولا
عودٌ، وهل بعدَ ذاك النفسُ تصطبر؟
مضى الإمام العظيم الحَبرُ بحرُ الصفا
جدي؛ الصفيُّ النزيه، البَر: منتصر
رأسُ التقا والنقاء، والجهاد، وكم
أحيى موات قلوب عَمَّها الكدرُ
لما أتى نعيُه نسيتُ كل الذي
مضى من العمُر العظيم يعتبَرُ
كأنني بضياعٍ سامني ساعةً
والعقل فيه ذهول، وهْوَ منبهِر
وهل يطيق مريضٌ حَر ذاتِ لظى
في الصدر شعلتُها، وفيه تستعر

فإنني مُترَكٌ في ظل حمأتها
همٌّ وغمٌّ ونيران بها وقروا

ماذا يطيق لساني أن يزودني
من الرثاء وقد أودى به الضرر

ماذا يطيق جَناني أن يحفزني
من القريظ، وفيه الهم منحصر

فذي البحارُ بحارٌ لا تكدرها
كل الدلاء، وإن النبعَ: منتصر

حِملُ الجروح وحِمل الأمة التُّعَسا
همٌّ به قام طولَ الدهرِ يزدهر

قد أشرقتْ شمسُه بدار شمس الضحا
محمدِ المصطفى، والخيرُ منتشِرُ

مِن نسلِ قومٍ إذا ما النجمُ رام العُلا
كانت نِعالهمُ مَرماه والظُّفُرُ

قومٍ مِن المصطفى المختار مَنسَلُهم
كما الشموس أضاؤوا إن همو سَفَروا

فكان منهجه وكان مَرضَعُه
من سر هذا النبيِّ البدرِ يعتمرُ

وصار منه به فَناؤه أبدًا
والذات منه وذي الأعضاءُ تأتمر

وسار سائرُه للشامِ شامتِنا
ونال منها رحيقًا ما له ثمرُ

بين الأئمة والأعلام منعكِسٌ
بين الضرائح والأبدال ينتشر
وطار طائره، وهام هائمهُ
لدار فاس، وفاسٌ إنها القمرُ
منها ارتوى وبها وعاؤه طفحا
وسرُّه اكتملن، والنورُ مُبتدِرُ
وفيه كان له الكمال مغتَرَفًا
إذ الرجوع إلى الأصولِ معتبَرُ
ثم ارتوى نحو مصر إذ بها صورٌ
من الحضارة فيها العقلُ يختمرُ
فذاق كل الفهوم مِن مَشارِقِها
إلى المغارب ما أعلاه يزدهرُ
ونال علمًا تعالى أن تدانيَهُ
شمُّ السِّماك، وهل للشمسِ مُبتدِرُ؟!
ونال فهمَ الألى قد جددوا في الورى
وصار بحرًا، فمنه القوتُ والدُّررُ
خاض السياسة والقاداتُ في سِنَةٍ
نصرًا لدين الإله، فهْو منتصِرُ
جاب البلاد مثيرًا للجهاد، له
صدْعٌ وصوتٌ، وفي الأحشاء مستَعَرُ
أعلى الديانة فوق الدهر منتهجًا
خُطا النبيْ المصطفى يعلو ويزدهر

سل البلاد التي رعتهُ في كنفٍ
عن الجهاد الذي أحماه[1]؛ إن شعروا

وسل رجالة إصلاحٍ وما عملوا
من المعلم؟ قال الكل: منتصر

وسل حجازًا ونجدًا كم له عملٌ
رقى به شرَفًا يغشى له البصر

وكم نفوسًا بلاها ذُلُّ معصيةٍ
نحو الجنان دعاها وهْي تأتمر

وكم قلوبًا تداعت وهْي كافرةٌ
به هداها الإلهُ، بالهدى عُمِروا

خطبٌ دهانا، وليس للبِعاد دوى
خطْبٌ دهانا ودمعُ العين منهمِرُ

ختْمُ الأئمة والأعلامِ قائدُهُم
نأى كما قد نأى في العتْمة القمر

مَن للحديث من الحفاظ بَعدَكمو
يتلوه عنعنة، أو قال، أو ذَكروا

يروي الأحاديث بالإسناد متصلا
إلى الرسول، فلا يُبقي ولا يذَرُ؟

مَن للعلوم ومن للفقه مرتجِلا
يحكي نقولا عن الأعلام تستطر

يأتي بنقل أئمةِ العلوم من الـ
ـأئمة الظُّهَرا، أو من همُ غَبَروا؟

(1) أي: أشعله وزاده حرارة.

لـه الـتـحـقـقُ والـتـحـقـيـقُ والـقـلـمُ الـسْـ
ـسَـيـالُ، والـعـقـلُ، والـتـرجـيـح يـنـهـدرُ
يـأتـي بـنـقـل مُـحـلـى ابـن حـزمَ مُـنـتـصِـرًا
بـمـا ابـن حـزمٍ غـفـا عـنـهـا، ويـنـتـصـر
مـن لـلـتـواريـخ يُـنـسـي بـابـن خـلـدون بـالـنْـ
ـنَـقـد والـنـقـل، هـامٍ دونـه الـخـبَـرُ
لـه الـنـقـول وسـردُ الـقـول مـخـتـبِـرًا
لـه الـتـسـرُّد، مـنـه تُـلـتـقـى الـعِـبَـرُ
مَـن لـلـبـلاغـة والآداب مـفـتـرِشًـا
نـشـرَ الأوائـل، بـل قـريـظُـهـم سُـررُ
يـنـسـيـكَ ذكـرَ "ذخـيـرةٍ" بـهـا سـكـرت
أولـو الـفـهـوم، فـيـحـلـو عـنـده الـسـهـرُ؟
مـن بـالـعـلـوم إذا يـمَّـمْـتَ مـبـتـهـجًـا
نـحـو الـيـمـيـن، وإن يَـسَّـرتَ يـنـفـجـر
أسُّ الـمـعـارف، بـحـرٌ مـا لـه قـعَـرٌ
كـمـا الـنـخـيـل أتـاه الـكـل قـد سُـحـروا؟
مـن لـلـعـبـادة مِـن ذِكـرٍ ومِـن سـهـرٍ
لـسـانُـه رطِـبٌ بـالـلـه مـنـصـدرُ؟
يـبـكـي إذا ذُكـر الـقـرآنُ والـمـصـطـفـى
كـذا الـصـلاة عـلـيـه، إنـهـا الـوطـر
نـزّهـتُ قـدركـمُ عـن الـوفـاة، وهـل
يـمـوت مـن تـرك الـوُرّاثَ تـبـتـدِرُ؟[1]

---

(1) أي: من البدر، تظهر ويعلو شأنها.

مـا مـات مـن كـان مـذكـورًا روايـتُـه
ومـات قـومٌ وهـم بـيـن الـورى نَـثَـرُ
نـحـن الـحـمـاةُ إذا غـفَـتـكُـمُ أمـمٌ
نـحـن الـقـفـاةُ ونـحـن الـفـرْطُ والـذخـر
عـمـتـكـمُ نـفـحـةٌ مـن الـرحـيـم كـمـا
عـمَّ الـنـسـيـمُ ريـاض الـزهـر يـنـتـشـرُ
ونـفـحـةٌ مـن صـلاة الـلـه تـعـمُـرُكـم
كـمـا الـرحـيـقُ غـدا فـي الـشـهـدِ يـنـحـصـرُ
وكـان مـنـزلـكـم مـع الـرسـول سـمـا
فـوق الـجـنـان، فـإن الأصـلَ يـبـتـدر[1]
ثـم الـصـلاة عـلـى الـرسـول أحـمـدِنـا
والآل والـصـحـب، والأتـبـاعُ تُـحـتَـضَـرُ
مـا هـبـت الـرحـمـاتُ، أو تـكـرر أن:
هـي الـمـقـاديـر جـاءت حـيـث تـقـتـدِرُ

ولك أن تسمي هذه الترجمة : "الشهد المنصهر بترجمة الإمام محمد المنتصر".

وكتبه : حفيد المترجم له الشريف محمد حمزة بن

محمد علي بن محمد المنتصر بالله الكتاني

عمان - الأردن

(1) أي: يسرع، من البدار.